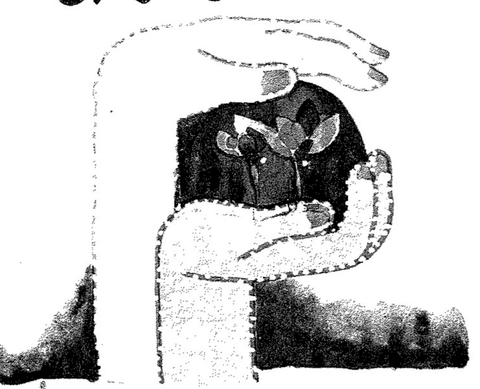


المواجهة

طبائع الإستبداد

عبد الرحمن الكواكبى



التنوير

اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين- القاهرة



عبد الرحمن الكواكبى

طبائع الإستبداد

التنوير



١٩٩٣

مقــدمة

لا خفاء أن السياسة علم واسع جدا ينقسم الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد انسان لا يتحكك فيه ٠

وقد وجد فى كل الأمم المتمدنة علماء سياسيون تكلموا فى فنون السياسة ومباحثها استطرادا فى مدونات التاريخ أو الأخلاق أو الأدب أو الحقوق ٠ ولا نعــرف للاقــدمين كتبا مخصوصة فى السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين وانمــا لبعضــهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلــة ودمنة ورســائل غوريغوريوس اليونانى ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج ٠

وأما فى القرون المتوسطة فلا تؤثر مؤلفات فى هذا الفن لغير علماء الاســلام فهم ألفوا فيه ممــزوجا بالأخــلاق كالرازى والطوسى والغزالى والعلائى وهى طريقة الفرس ، وممزوجا بالأدب كالمعــرى والمتنبى وهى طريقــة العرب ، وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهى طريقة المغاربة ٠

أما المتأخرون من أهل أوربا فقد توسعوا فى هذا العــلم وألفوا فيه كثيرا واشبعوه تفصيلا حتى أنهم أفردوا بعض مباحثه فى التأليف بمجلدات ضخمة ٠

وقد ميزوا مباحثهالى سياسة عمومية وسياســية خارجيــة وسياسية داخلية وسياسية ادارية وسياسية اقتصــادية وسياســة حقوقية الخ ، وقسموا كلا منها الى أبواب شتى وأصول وفروع ٠

وأما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا ·

وأما العرب فقليلون ومقلون والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك وخير الدين باشا التونسي وأحمد فارس وسليم البستاني والمبعوث المدني · ولكن يظهر لنا الآن أن المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضع كثيرة · ولهذا لاح لهذا العاجز أن أذكر حضراتهم على لسان الجرائد العربية بموضوع هو أهم المباحث السياسية وقل من طرق بابه منهم فأدعوهم الى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها أفكار اخوانهم الشرقيين وينبهونهم لا سيما العرب منهم لما هم عنه غافلون · فيفيدونهم بالبحث والتعليم وضرب الأمثال والتحليل ما هو حقيقة « داء الشرق ودوائه » ·

ونظرا الى مبنى علم السياسة على تعريفه بأنه هو « ادارة الشئون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها « الاستبداد » أي التصرف في الشئون المشتركة بمقتضى الهوى ·

وأني أرى أن المتكلم في هذا البحث عليه أن يلاحظ تعريف وتفصيل « ما هو الاستبداد ؟ ما سببه ؟ ما أعراضه ؟ ما تشخيصه ؟ ما سيره ؟ ما انذاره ؟ ما دواؤه ؟ » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلا كثيرا وبعضه يتحمل سفرا كبيرا ·

وهذه المباحث من حيث مجموعها تنطوي على مسائل كثيرة أسرد منها بعض الأمهات وهي : ما طبيعة الاستبداد ـ لماذا يكون

المستبد شديد الخوف ــ لماذا يستولى الجبن على رعية المستبد ــ ما تأثير الاستبداد على الدين ؟ على العلم ــ على المجد ــ على المال ــ على الأخلاق ــ على الترقى ــ على التربية ــ من أهم أعوان المستبد ــ هل يتحمل الاستبداد ــ كيف يمكن التخلص من الاستبداد ــ بماذا ينبغى استبدال الاستبداد ــ ما هى طبائع الاستبداد ·

ثم أنى قبل الخوض فى هذه المسائل ألخص النتائج التى تستقر عندها أفكار المتكلمين فيها وهى نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والأنظار فى الباحثين ·

فيقول المادى · الداء القوة والدواء المقاومة : ويقول السياسى : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية · ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف · ويقول الحقوقى : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة · ويقول الربانى : الداء مشاركة الله فى الجبروت والدواء توحيد الله حقا ·

هذه أقوال أهل النظر وأما أهل العزائم ــ فيقول الابى الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل · ويقول الشهم : لداء التعالى على الناس باطلا والدواء تذليل المتكبرين · ويقول والمتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال · ويقول المفادى : الداء حب الحياة والدواء حب الموت ·

ما هو الاستبداد ؟ الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأى نفسه فيما ينبغى الاستشارة فيه ·

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لأنها هى أقوى العوامل التى جعلت الانسان أشقى ذوى الحياة وأما تحكم رؤساء بعض الأديان وبعض العائلات وبعض الأصناف فيوصف بالاستبداد مجازا أو مع الاضافة ·

وفى أصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بلا خرف تبعة ٠

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون فى مقام كلمة (الاستبداد) كلمات استعباد ٠ واعتساف ٠ وتسلط ٠ وتحكم ٠ وفى مقابلتها كلمات شرع مصـــون ٠ وحقـــوق محترمة ٠ وحس مشترك ٠ وحياة طيبة ٠

ويستعملون فى مقام صفة (مستبد) كلمات حاكم بامره ، وحاكم مطلق ٠ وظالم ٠ وجبار وفى مقابلة حكومة مستبدة كلمات عادلة ٠ ومسئولة ٠ ومقيدة ٠ ودستورية ٠

ويستعملون فى مقام صفة (مستبد عليهم) كلمات أسرى وأذلاء ٠ ومستصغرين ٠ ومستنبتين(١) وفى مقابلتها محتسبون ٠ وأباة ٠ وأحرار ٠ وأحياء ٠

هـــــذا تعريف الاستبداد بأســـــلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريفه بالوصف فهو أن الاستبداد صفة للحـــكومة المطـــلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين ٠

ومنشأ الاستبداد أما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفاتها على شريعة أو على أمثلة أو على ارادة الأمة وهذه حالة الحكومات المطلقة ٠ وأما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها أبطـــال قوة القيد بما تهـــوى وهـــذه حـــالة أكثر الحكومات التى تسمى نفسها بالمقيدة ٠

وأشكال الحكومة المســتبدة كثيرة ليس هـــذا البحث محـــل

---

(١) الاستنبات أو التنبت من اصطلاحات سواس الأفرانج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات ٠

تفصيلها • ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذى تولى الحكم بالغلبة او الوراثة تشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب ، وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخبا لأن الاشتراك فى الرأى لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعا وقد يكون أحكم واضر من استبداد الفرد • ويشمل ايضا الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لأن ذلك ايضا لا يرفع الاستبداد ولا يخففه مالم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التى تعرف أن تراقب وان تتقاضى الحساب •

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد مالم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التى لا تسامح فيها كما جرى فى صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان رضى الله عنه وكما جرى فى عهد هذه الجمهورية الحاضرة فى فرنسا فى مسائل النياشين وبناما ودريفوس •

ومن الأمور المقررة أنه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من اسباب غفلة الأمة أو اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفى خدمتها شىء من القوانين الهائلتين المهولتين جهالة الأمة والجنود المنظمة •

ولا يعهد فى تاريخ حكومة من الحكومات المدنية استمرار حكومة مسئولة مدة اكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف • وما شذ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة فى انكلترا والسبب يقظة الانكليز الذين لا يسكرهم انتصار ، ولا يخملهم انكسار • وهذه حضرة الملكة فيكتوريا لو تسنى لها الاستبداد الآن لغنمته

ولو لأجل عشرة أيام من بقية عمرها . ولكن هيهات أن تظفر بغرة من قومها تستلم فيها زمام الجيش .

أما الحكومة البدوية التى تتألف رعيتها كلها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم وسامتهم ضيما ولم يقووا على الاستنصاف فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد .

وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان الى الآن الا فترات قليلة .

وقد تكلم الحكماء لا سيما المتأخرون فى وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصور فى الأذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم ويحاكمهم بهواء لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته » .

« المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشر والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم اخوتهم الراشدون ان ايقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا » .

« المستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزا فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب » .

« المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير، فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر ٠

مستعدة لأن تقول لا أريد الشر ٠ مستعدة لأن تتبع القول بالعمل على أن مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفى شر الاستبداد ٠

المستبد انسان والانسان أكثر ما يألف الغنم والكلاب ٠ فالمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذللا وتملقا ٠ وعلى الرعية أن تكون كالخيل أن خدمت خدمت وأن ضربت شرست بل عليها أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد أم هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها ٠ والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه فى يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته وفى هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل ٠



« الاســتبداد والدين »

ورد فى المقــدمة والتعــريف بعــض ايضــاح للمــراد من الاستبداد . على أن معرفة طبــائع الاســتبداد اجمــالا لا تتم الا باستيفاء الكلام على المباحث التى أشرت اليها ومنها بحث تأثير الاستبداد على الدين وانى تخيرت أن أتكلم فى هذه المواضيع اجمالا واقتضابا على أسلوب شبيه بالخطابة فأقول :

قد تظافرت آراء أكثر المحررين السياسيين من الأفرنج على أن الاستبداد السياسى متولد من الاستبداد الدينى والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك أنهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعــاون لتــذليل الانســان . والمشاكلة بينهما ظاهرة من أن أحدهما حاكم فى عالم القــلوب والآخر متحكم فى مملكة الأجسام .

والفريقان مصيبان فى حكمهم بالنظر الى أســاطير الأولين والقسم التاريخى من التوراة والرســائل المضــافة الى الانجيل . ومخطئون مطلقا فى حق الأقسام التعليمية منها كما هم مخطئون فى نظرهم أن القرآن جاء باستبداد مؤيد للاســتبداد الســياسى أو مؤيد به ولعلهم يعذرون اذا قالوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظرا لخفائها علينا فى طى اشاراته وبلاغته . وانما نبنى نتيجتنا على مقدمات ما نشــاهد عليــه المسـلمون اليوم من اســتعانة مستبديهم بالدين .

يقول هؤلاء المحررون : ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعوا البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تتهدد الانسان بكل مصيبة فى الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديدا ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والأوهام . ثم تفتح هذه التعاليم أبوابا للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الأحبار والقسس والمشايخ . ودخوليتها التعظيم الراسب بالقلب والقالب أى تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لأولئك الحجاب الذين بعضهم يحتجزون حتى الأرواح من لقاء ربها ما لم يأخذوا عنها رسوم المرور الى القبور وفدية الخلاص من الاعتراف .

ويقولون أن المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضا لأنهم يسترهبون الناس بالمتعالى الشخصى والتشامخ الحسى ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم كانهم خلقوا من جملة الأنعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط .

ويرون ان هذا التشاكل فى بناء ونتائج الاستبدادين الدينى والسياسى جعلهما فى مثل فرنسا خارج باريس مشتركين فى العمل كانهما يدان متعاونتان . وجعلهما فى مثل روسيا مشتبكين فى الوظيفة كانهما القلم والقرطاس اذا استعملا فى تسجيل الشقاء على الناس .

ويقررون أن هذا التشاكل بين القوتين ينجز بعوام البشر وهم السواد الأعظم الى التباس الاله المعبود والجبار عليهم واختلاطهما فى مضايق أذهانهم من حيث التشابه فى استحقاق التعظيم والرفعة عن السؤال والمؤاخذة على الأفعال . بناء عليه لا يرون لأنفسهم حقا فى مراقبة المستبد .

وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين فى كثير من الحالات والأسماء والصفات وهم هم ليس من شأنهم أن يفرقوا مثلا بين الفعال المطلق والحاكم بأمره وبين « لا يسئل عما يفعل » و « غير مسئول » وبين « المنعم وولى النعم » وبين « جل شأنه » و « جليل الشأن » بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله .

وهذه الحال هى التى سهلت فى الأمم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد أذهان الرعية حتى يقال أنه ما من مستبد سياسى الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقام ذى علاقة مع الله . ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله .

ويعللون أن قيام المستبدين من أمثال « أبناء داود وقسطنطين » فى تأييد نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل « فيليب الثانى » الأسبانى و « هانرى الثامن » الانكليزى للدين حتى بتشكيل مجالس انكليزسيون وكالحاكم الفاطمى والسلاطين الأعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله الا بقصد الاستعانة بالدين أو بأهل الدين على ظلم المساكين .

ويحكمون بأن بين الاستبدادين السياسى والدينى مقارنة لن تنفك متى وجد أحدهما فى أمة جر الآخر اليه أو متى زال زال رفيقه وان ضعف أى صلح احدهما صلح الثانى . وشواهد ذلك كثيرة جدا لا يخلوا منها زمان ولا مكان وكلها تبرهن على أن الدين أقوى تأثيرا من السياسة ويمثلون بالسكسون فان البروتستانتية أثرت فى الاصلاح السياسى أكثر من تأثير الحرية السياسية فى الاصلاح عند الكاثوليك .

والحاصل أن كل المدققين السياسيين يرون أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون أن اصلاح الدين أسهل منالا وأقوى وأقرب طريقا للاصلاح السياسى ٠

ويرون أن أول من سهل هذا المسلك حكماء اليونان حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين فى حملهم على قبول الاشتراك فى السياسة بأحيائهم عقدة الاشتراك فى الألوهية أخذوها عن الأشوريين ومزجوها بأساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة باله والحرب باله والبحار باله والأمطار باله الى غير ذلك من التوزيع وجعلوا لاله الآلهة حق النظارة عليهم وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم ٠

وبعد تمكن هذه العقيدة فى الأذهان بما ألبست من سحر البيان سهل على أولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد وبأن تكون ادارة الأرض كادارة السماء فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين ٠ وهذه الوسيلة العظمى التى مكنت اليونان أخيرا من اقامة جمهوريات أثينا وأسبارطة ٠ وكذلك فعل الرومان ٠ وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الادارة فى الحكومات الملكية والجمهورية على أنواعها الى هذا العهد ٠

انما هذه الوسيلة أى التشريك فضلا عن كونها باطلة فى ذاتها نتج عنها أخيرا رد فعل أضر كثيرا ٠ وذلك انها فتحت للمشعوذين من سائر الطبقات بابا واسعا لدعوى شىء من خصائص الألوهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير افراد من الجبابرة وللاءمة هذه المفسدة لطبائع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشا عرمرما يخدم المستبدين ٠

وقد جاءت التوراة بالنشاط والنظام رافعة عقيـدة التشريك في أسباط بني اسرائيل مستبدلة مثلا أسماء الالهة بالملائكة ولكن لم يرض بعض ملوك بني اسرائيل بالتوحـيد فأفسـدوه ثم جاء الانجيل بالدعة والحلم مؤيدا أيضا لناموس التوحيد ولكن لم يقو دعاته الأولون على تفهيم تلك الأقوام المنحطة الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الأمم المترقية أن الأبوة والنبوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليما كمسألة القدر في الاسلامية بل تلقوها منهم بمعنى والد حقيقي لأنهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم أنهم أبناء الله فكبر عليهم في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك ٠

ثم أن النصرانية ما لبثت أن تلبست ثوبا غير ثوبها كما هو شأن سائر الأديان التي سلفتها فتوسعت برسائل بولس ونحوها وصارت تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة والعصمة وقوة التشريع مما رفض أكثره أخيرا البروتستان أي الراجعـون في الأحكام لأصل الانجيل ٠

ثم جاء الاسلام بالحـكمة والعـزم هادما للتشريك بالكلية ومحكما لقواعد الحرية السياسـية المتوسـطة بين الديمقراطيـة والأريستقراطية فأسس التوحيد ٠ وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد ٠

فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه اماما فانشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئـة اجتماعية وحالات معيشـة

اشتراكية لا تكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة اب واحد وفى حضانة أم واحدة ٠

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوى حتى فى القصص منه ٠ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبع تخاطب اشراف قومها « يا ايها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ٠ قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ٠ والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين ٠ قالت أن الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » ٠

فهذه القصة تعلم كيف ينبغى ان يستشير الملوك الملأ اى اشراف الرعية وأن لا يقطعوا امـرا الا برأيهـم وأن تحفظ القوة والبأس فى يد الرعية وأن يخصـص الملوك بالتنفيـذ ويـكرموا بنسبة الأمر اليهم وتعـلن شأن الملوك المسـتبدين واستحقـاقهم للمؤاخذة والتقبيح ٠

ومن هذا الباب أيضا ما ورد فى قصة موسى عليه السـلام مع فرعون فى قوله تعالى « وقال الملأ من قوم فرعون أن هـذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون » أى قال الأشراف بعضهم لبعض ماذا رايكم « قالوا » خطابا لفرعون وهو قرارهم « ارجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى « فتنازعوا أمرهم » أى رأيهم « بينهم وأسروا النجوى » أى افضت مذكراتهم العلنية الى النزاع فاجروا مذاكرة سرية طبق ما يجرى الى الآن فى مجالس الشورى العمومية ٠

بناء عليه لا مجال لرمى الاسلامية بالاستبداد بعـد أمثـال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالى « وشـاورهم

فى الأمر » أى فى الشأن وكذلك قوله تعالى « وأمرهم شـورى بينهم » أى شأنهم وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين ·

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى « وما أمر فرعون » أى ما شأنه وحديث « أميرى من الملائكة جبريل » أى مشاورى ·

وقد ظهر من هذا أن الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية أى العمومية والشورى الاريستوقراطية أى شورى الأشراف · وقد مضى عهد النبى عليه الصـلاة والسـلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأتم وأكمل صورها خصوصا وانه لا يوجد فى الاسلامية نفوذ دينى مطلقا فى غير مسائل اقامة الدين · هذا الدين الحر السهل السمح الذى رفع الأصر والأغلال وابادة الميزة والاستبداد · الدين الذى ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها فى قبور الهوان · الدين الذى فقد الأنصار والأبرار والحكماء الأخيار فسـطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعا وجعلوه آلة لاهوائهم فضيعوه وضيعوا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وادخـال ما ليس منه فيه كما فعل أصحاب الأديان السائرة حتى جعلوه دينا لا يقوى أحد ممن يتوهم أن كل ما دونوه هو منـه على القيـام بواجباته وآدابه ومزايداته التى صارت تشتبه مراتبها على العوام والخاص ·

وبذلك انفتح على الأمة باب التـلوم على النفس واعتقـاد التقصير المطلق وأن لا نجاة ولا مخرج ولا امكان لمحاسـبة النفس وهذه الحـال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المنوط بها قيام الدين وقيام النظام والعدل ٠

وهذا الاهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال اوسع لأمراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود ٠ وبهذا وذاك ظهر حكم حديث « هلك المتنطعون » أى المتشددون فى الدين وحديث « لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب » والله اللهم للصواب ٠

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال :

« اقتبسوا » مقام البابوية وتمثيله ٠ باحترام الأعاظم احترام عبادة ٠ وطاعة الكبراء على العمياء ٠ وضاهوا مقامات البطارقة والكردينالية والشهداء وأسقفية كل بلد ٠ وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ٠ والرهبنات ورؤسائها ٠ وحالة الأديرة وبادريتها ٠ والرهبنة أى التظاهر بالفقر ورسومها ٠ والحمية وتوقيتها ٠ وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى البستهم وشعورهم ٠ وشاكلوا ٠ مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها والترنحات ووزنها والترنمات وأصولها واقامة الكنائس على القبور وشد الرحال لزيارتها ٠ والاسراج عليها ٠ والخضوع لديها وتعليق الآمال بسكانها ٠ وأخذوا التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصلب « وانتزعوا » الحقيقة من السر ٠ ووحدة الوجود من الحلول ٠ والخلافة من الرسم ٠ والسقيا من تناول القربان ٠ والمولد من الميلاد ٠ وحفلته من

الأعياد ورفع الأعلام من حمل الصلبان · وتعليق الواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل · والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحناء أمام الأصنام · « ومنعوا » الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك التفهم من الانجيل على غيرهم وسد اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود « وجاءوا » من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك وبخشية أوضاع الكراكب وباتخاذ أشكالها شعارا واحترام النار ومواقدها « ولفقوا » من الأساطير والاسرائيليات أنواعا من القربات وعلوما سموها لدنيات ·

ومن تأمل فى هذه المقتبسات يجد أكثرها أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد ، وهكذا تفسد الأديان ويشقى الانسان ولا حول ولا قوة الا بالله ·

وكذلك يقال عن مبتدعى النصارى من أن أكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مسألة التثليث لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع وكثيرها متبع · وقد اكتشف العلماء الأثاريون من الصحف والصفائح التى وجدت فى نواويس المصريين الأقدمين على ماخذ أكثرها · وكذلك وجدو المزيدات التلمود وبدع الأحبار أصولا فى الأساطير والآثار والألواح الأشورية وترقوا فى التطبيق والتدقيق الى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة الى أصول عامة الأديان فى الشرق الأدنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الأقصى ·

والخلاصة أن البدع التى شوهت الايمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمى جميعها الى غرض واحد هو المراد الا وهو الاستبداد ·

والناظر المدقق فى تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الأولين المنافقين أفعالا مريعة فى اطفاء نور العلم ويجد أنهم طالما أرادوا أن يطفئوا نور الله ولكن أبى الله ألا أن يتم نوره فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذى هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف وهى احدى معجزاته لأنه قال فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا أيضا من معجزاته لأنه أخبر عن ذلك فى قوله « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

وانى أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد فى العلم والاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من أن يفسروا قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن تفسيرا مدققا لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين فى العلم فيكفرون فيقتلون وهذه مسألة اعجاز القرآن وهى اهم مسألة فى الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هى فصاحتها وبلاغتها وأخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون .

مع أنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا فى ألوف من آيات القرآن ألوف من آيات الاعجاز . لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق قوله « ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » برهان عيان لا مجرد تسليم وايمان .

ومثال ذلك أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا

وأمريكا والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هى الاثير وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال « واستوى الى السماء وهى دخان » ٠

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة والقرآن يقول « وآية لهم الأرض الميتة احييناها » الى أن يقول « وكل فى فلك يسبحون » ٠

وحققوا أن الأرض منفتقة فى النظام الشمسى والقرآن يقول « ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ٠

وحققوا أن القمر منشق من الأرض والقرآن يقول « أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » ويقول « اقتربت الساعة وانشق القمر » ٠

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول « خلق سبع سموات طباقا ومن الأرض مثلهن » ٠

وحققوا انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن يعتد الأرض أى ترتج فى دورتها والقرآن يقول « والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » ٠

وكشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشىء عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول « كل عنده بمقدار » ٠

وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

وحققوا أن العالم العضوى ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » .

وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات والقرآن يقول « خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض » ويقول « فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » ويقول (اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » ويقول « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين » .

وكشفوا طريقة امساك الظل أى التصوير الشمسى والقرآن يقول « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » .

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدرى وغيره من المرض والقرآن يقول « وأرسل عليهم طيرا أبابيل » أى متتابعة مجتمعة « ترميهم بحجارة من سجيل » أى من طين المستنقعات اليابس الى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيرا من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون تجديدا لاعجازه ما دام الزمان وما كر الجديدان .



الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبد فى نسبته الى رعيته بالوصى الخائن القوى على أيتام أغنياء • يتصرف فى أموالهم وأنفسهم كما يهوى ماداموا قاصرين فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم • كذلك ليس من غير المستبد أن تتنور الرعية بالعلم •

لا يخفى على المستبد أن لا استعباد ولا اعتساف مالم تكن الرعية حمقاء تخبط فى ظلامة جهل وتيه وعماء • فلو كان المستبد طيرا لكان خفاشا يصطاد هوام العوام فى ظلام الجهل ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر فى غشاء الليل •

والعلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحا للخير فضاحا للشر يولد فى النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة •

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يفل الجيوش لأنه يعرف أن الزمان ضنين بأن تلد الأمهات كثيرا من أمثال الكميت وحسان أومونتسكيو وشيللار •

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام

لا يعدم وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمـره بنحو سـد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد ·

نعـم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحيـاة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقـوق الأمم وسياسة المدنيـة والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها من العلوم المزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤوس ·

ويقال بالاجمال أن المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التى توسع العقول وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هى حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ · المسـتبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله · المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمسـتبد أعمال وصـوالح لا يفسـدها عليه الا العلمـاء ·

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضـه لذاته لأن للعـلم سلطانا أقوى من كل سلطان فلابد للمستبد من أن يستحقر نفسـه كلما وقعت عينيه على من هـو أرقى منه علمـا · ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم اذكى فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهنـدس يختـار المتصـاغر المتملـق · وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله « فاز المتملقون » بل هذه طبيعة فى كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكينا خاملا لا يرجى لخير ولا لشر ·

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطردا مستمرا يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى اطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام ومن هم العـوام ؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا · وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعـلوا ·

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول • يأسرهم فيهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة ويهينهم فيثنون على رفعته ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا أسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان نقم عليهم منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة •

والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع أى انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام وأب رحيم يتلذذ بالتحابب •

وحينئذ تنال الأمة حياة رضية هنية • حياة رخاء ونماء ، حياة عز وسعادة • ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد أن كان فى دور الاستبداد أشقى العباد لأنه كان على الدوام محاطا بالأعداء ملحوظا بالبغضاء غير آمن على حياته طرفة عين •

ولا شك أن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه لأن خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيء عن جهل • وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل • وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره فى أيام •

وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته • وكثيرا ما تختم حياة المستبدين الضعيفى القلوب منهم بالجنون •

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان أحدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدين كثيرين وتيمور مثلا يكفى أن يوازن درجـة ما كانا عليـه من التحذر والتحفظ واذا أراد الماضلة بين عادلين كانوا شروان وصـلاح الدين يوازن مرتبتى أمنهما فى قوميهما •

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأى الخيـر والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقـل والشـيطان رأت بعض الأمم الغـابرة أن أضر شيء على الانسـان هـو الجهـل وأضر آثار الجهـل هـو الخـوف فعملت هيكلا مخصصا للخوف يعبـد اتقـاء لشره •

قال أحد المحررين السياسيين انى أرى قصر المسـتبد فى كل زمان هو هيكل الخـوف عينه • فالملك الجبـار هـو المعبـود وأعوانه هم الكهنـة ومكتبته هى المذبح المقـدس والأقـلام هى السكاكين وعبارات التعظيم هى الصلوات والناس هم الأسرى الذين يقـدمون قرابين •

ويقول أهل النظر فى أحوال البشر ان خير ما يسـتدل به على صفة السياسة فى الأمم شنآن الملوك وفخـامة القصور وعظمـة الحفـلات ومراسـم التشريفات •

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الأمة فى الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتهـا هـل هى كثيرة ألفاظ التعظيـم غنيـة فى عبـارات الخضـوع كالفارسـية مثـلا أم فقيـرة فى هـذا الباب كالعـربية •

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغـالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها فى اطفاء نور العلم وحصر الرعية فى حالك الجهـل • وكذلك بعض العلمـاء الذين ينبتون فى مضايق صـخور الاستبداد يسعون جهدهم فى تنوير أفكار الناس • والغالب أن رجال

الاســتبداد يطــاردون رجــال العـلم وينكلون بهم فالســعيد منهم من يتمكن من مهــاجرة دياره وهـــذا سبب ان كل الأنبيـــاء العظام عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء الاعلام والأدباء النبلاء تقلبوا فى البلاد وماتوا غرباء ٠

قال المدققون ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم أن يعرف النــاس حقيقــة أن الحــرية أفضــل من الحيــاة وأن يعرفوا النفس وعــزها والشرف وعظمتــه والحقـــوق وكيف تحفظ والظــلم وكيف يرفع والانســانية وما هى وظائفها والرحمة وما هى لذاتهــا ٠

أما المستبدون الشرقيــون وخوفهم من العــلم فافئدتهم هواء يرتجف من صولة العلم وكأن أجسامهم من بارود والعــلم نــار ٠ نعم يخافون من العلم حتى من علم النــاس معنى كلمة « لا الــه الا الله » ولماذا كانت أفضــل الذكر ولماذا بنى عليهــا الاســـلام ٠ بنى الاسلام بل وكافة الأديان على ألا اله الا الله ومعنى ذلك أنــه لا يعبــد حقا سواه أى سوى الصانع الأعظم ومعنى العبادة التذلل والخضوع فيكون معنى لا اله الا الله « لا يســتحق التذلل والخضوع شىء غير الله » فهل والحــالة هذه يناسب المستبدين أن يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلا ثم كلا ٠

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الأديان الأقوياء أو الأغبيــاء والآباء الجهــلاء والأزواج الحمقاء ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة ٠ ولهذا ما انتشر نور التوحيــد في أمــة قط الا وتكسرت فيها قيود الأسر ولكن قتل الانسان ما أكفره بنعــم مولاه وما أظلمه لنفسه وجنسه ٠



الاستبداد والمجد

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم « الاستبداد أصل لكل فساد » ومبنى ذلك أن البحث المدقق فى أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف أن للاستبداد أثرا سيئا فى كل واد ٠

وقد سبق أن الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده ٠ ويحارب العلم فيفسده ٠ وانى الآن ابحث فى أنه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد ٠

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام فى القلوب وهو مطلب طبيعى شريف لكل انسان لا يترفع عنه نبى أو زاهد ولا ينحط عنه دنى أو خامل ٠ للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين فى الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الأرض مع قمرها عند الأمراء وتزيد على لذة مفاجأة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد فى النفوس منزلة الحياة ٠

ولذا طالما أشكل على الباحثين أى حرصين أقوى ؟ حرص الحياة أم حرص المجد ؟ والحقيقة التى عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هى أن المجد مفضل على الحياة عند الأحرار ٠ وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء ٠ وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت عليهم السلام معذورون فى القائهم بأنفسهم فى المهالك لأنهم لما كانوا أحرارا ابرارا يميزون طبعا الموت كراما على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذى

خطأ امجاد البشر فى اقدامهم على الخطأ ناسيا تقريره أن سباع الطير والوحوش تأبى التناسل فى اقفاص الأسر بل وجدت فيها طبيعة اختيار الانتحار تخلصا من قيود الذل ٠

المجد لا ينال الا بنوع من البذل فى سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين فى سبيل الله أو سبيل الدين ٠ وبتعبير الغربيين فى سبيل الانسانية أو سبيل الوطنية ٠ والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ما طالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بتذكر نعمائه عليهم ٠

وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف المجد أو بذل العلم النافع المفيد للجمعية ويسمى مجد الفضيلة أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار فى سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة ٠ وهذا أعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق ٠ وهو المجد الذى تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه أعناق النبلاء ٠ وكم له من عشاق لذت لهم فى حبه الشهادة وأكثرهم يكون من مواليد بيوت الشرف التالد الذى يتصل أوله بعهد الحرية والعدل أو يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين انقطاعا طويلا ومن أمثلة المجد قولهم خلق الله للمجد رجالا يستعذبون الموت فى سبيله ٠

وهذا « نيرون » سأل « آغريبين » الشاعر وهو تحت النطع من أشقى الناس ؟ فأجابه معرضا به من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له فى الخيال ٠ وكان « ترابان » العادل اذا قلد سيفا لقائد يقول له هذا سيف الأمة ارجو أن لا اتعدى القانون فلا يكون له نصيب فى عنقى وخرج قيس من مجلس الوليد مغضبا يقول اتريد أن تكون جبارا والله ان نعال الصعاليك لأطول من سيفك ٠ وقيل لأحد الأباه ما فائدة سعيك غير جلب

الشقاء على نفسك فقال ما أحلى الشقاء فى سبيل تنغيص الظالمين • وقال آخر على أن أفى بوظيفتى وما على ضمان القضاء • وقيل لأحد النبلاء لماذا لا تبنى لك دارا فقال ما أصنع فيها وانا المقيم على ظهر الجواد أو فى السجن أو فى القبر • وهذه ذات النطاقين « أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما » وهى امرأة عجوز تودع ابنها الوحيد بقولها ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت •

والحاصل أن المجد هو المجد محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه وهو ميسر فى عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده وهمته وينحصر تحصيله فى زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان •

ويقابل المجد من حيث مبناه التمجد وما هو التمجد ؟ وماذا يكون التمجد ؟ التمجد لفظ هائل المعنى ولهذا أرانى أتعثر بالكلام وأتلعثم فى الخطاب لا سيما من حيث اخشى مساس احساس بعض المطالعين ان لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الأولين فاناشدهم الوجدان والحق المهان أن يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها • ثم هم مثلى ومثل سائر الجانين على الانسانية لا يعدمون تأويلا • واننى اعلل النفس بقبولهم تهوينى هذا فانطلق وأقول :

التمجد خاص بالادارات المستبدة وهو القربى من المستبد بالفعل كالأعوان والعمال أو بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل وبتعريف آخر التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانية •

وبتوصيف أجلى هو أن يتقلد الرجل سيفا من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلاد فى دولة الاستبداد أو يعلق على صدره وساما مشعرا بما وراءه من الوجد انه المستبيح للعدوان أو يتحلى بسيور مزركشة تنبىء بانه صار اقرب الى النساء منه الى الرجال. وبعبارة أوضح وأخصر هو أن يصير الانسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم .

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية وذلك لأن الحكومة الحرة التى تمثل عواطف الأمة تأبى كل الاباء اخلاء التساوى بين الأفراد الا لموجب حقيقى فلا ترفع قدر احد منها الا أثناء قيامه فى خدمتها أى الخدمة العمومية كما انها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب الا اعلانا لخدمة مهمة وفقه الله اليها وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات .

وهذا لقب اللوردية مثلا عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ولكن لا يناله عندهم غالبا الا من يخدم أمته خدمة عظيمة ويكون من حيث اخلاقه وثروته أهلا لأن يخدمها خدما مهمة غيرها ومع ذلك لا اعتبار للورد فى نظر الأمة الا ما دامت تقرأ فى جبهته سطرا محررا بقلم الوطنية وبمداد الشهادة ممضى بدمه يقسم فيه بشرفه أنه ضمين ناموس الأمة اى قانونها الأساسى حفيظ على روحها اى حريتها .

التمجد لا يكاد يوجد له أثر فى الأمم القديمة الا فى دعوى الألوهية وما بمعناها من نفع الناس بالأنفاس أو فى دعوى الأصلاء نسل الملوك والأمراء وانما نشأ التمجد فى القرون الوسطى وراج سوقه فى القرون الأخيرة الى أن صارت الحرية تغسل ادرانه على حسب قوتها وطاقتها .

المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة وما يخدعون الا أنفسهم بأنهم احرارا فى شؤونهم لا يزاح لهم نقاب ولا تصفع

منهم رقاب فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساءات والاهانات التى تقع عليهم من قبل المستبد بل للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها بل على مقاومة من يدعى خلافها بل على تغليظ افكار الناس فى حق المستبد وابعادهم من اعتقاد أن من شانه الظلم ٠

وهكذا يكون المتمجدون اعداء للعدل انصارا للجور وهذا ما يقصده المستبد من ايجاد المتمجدين والاكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر الأمة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض الاستبداد فيوهمها انه يريد نصرة الدين او يسرف بالملايين من اموال الأمة فى ملذاته وتاييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وابهة ملكها ٠ او يستخدم الأمة فى التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها ٠ او يتصرف فى حقوق الملك والأمة كما يشؤه هواه باسم ان ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة ٠

المستبد قد يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرمحون ٠ يتخذهم كنموذج البائع الغشاش على أنه لا ينتخب العمال والأعوان الا من الاراذل والأسافل ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة الأوغاد والحكمة فى ذلك أظهر من أن تحتاج الى بيان طويل ٠

المستبد قد يستمجد أيضا بالمناصب والمراتب بعض العقلاء الأمناء اغترارا منه بانهم خبثاء ينفعونه بدهائهم ثم لما يخيب نظره فيهم بعد التجربة يبادر بالتنكيل بهم أو يهجرهم ولهذا لا ينال الحظوة عنده الا الجاهل العاجز او الخبيث الخائن وهنا انبه فكر المطالعين الى أن هذه الفئة اى العقلاء الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الأمة ونيل مجد النبالة ثم يضرب على يدهم لمجرد انهم أمناء هى الفئة التى تتكهرب بعداوة الاستبداد

وينادى أفرادها بالاصلاح ، وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدين أمره لأنهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغبة · ومن هنا نشأ اعتمادهم فى التجربة غالبا على العريقين فى خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدين ومن هنا ابتدأت فى الأمم نغمة التمجد بالأصالة والانساب ·

حيث كان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد رأيت ان أتكلم عليها قليلا ثم أعود لبحث المستبد وأعوانه المتمجدين فاقول :

الأصالة صفة لا تنكر مزاياها من حيث الأميال التى يرثها الأبناء من الآباء : ومن حيث التربية التى تكون مستحكمة فى البيت· ومن حيث انها تكون مقرونة بشىء من الثروة المعينة على مظاهر الرحمة والشهامة : ومن حيث انها مدعاة غالبا للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز : ومن حيث تقويتها العلاقة بالأمة والوطن ، ومن حيث ان أهلها يكونون منظورين دائما فيتحاشون نوعا المعائب والنقائص ·

وبيوت الأصالة تنقسم الى ثلاثة أنواع · بيوت علم وفضيلة وبيوت مال وكرم · وبيوت ظلم وامارة · وهذا الأخير هو القسم الأكثر عددا والأهم موقعا وهو مطمح نظر المستبد فى الاستعانة وموضع ثقته · فلننظر ماذا هو نصيب هذا القسم من تلك المزايا ·

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده أمياله فى العدالة ولم توجد · أم يتربى على غير الوقار الباطل السائد فيما بين العائلة فى بيتهم أم يستخدم الثروة فى غير الملاذ البهيمية والأبهة الكاسرة لقلوب الفقراء أم يتمثل بغير أقران السوء المتملقين المنافقين · أم لا يستحقر أمته لجلها قدره ومقامه أم يرى لجنابه وطنا

غير مقــاعد التحكم · أم يســتحى من الناس ومن هم الناس عنده غير أشــباح فيها أرواح ·

وهذه حالة الأكثرين من الأصلاء على أنه لا نبخس حق من نال منهم حظا من العلم وأوتى الحكمة فان هؤلاء وقليل ما هم ينجبون نجــابة عظيمة عجيبة فكــأنهم يرثون قوة القلب فيستعملونها فى الخيــــر لا فى الشر ويستفيدون من أنفة الكبـــراء الجسارة على العظماء وهكذا تتحــول قوة كل المميزات الى فضل فائض وحسب شامخ ومنها الحنين الى الوطن وأهله والأنين لمصـــابه والاقــدام على العظائم وأمثــال هــؤلاء النــوابغ النجباء اذا كثــروا فى أمة يوشــك أن يترقى منهم أحاد الى درجة الخــوارق فيقودوا أممهم الى النجــاح والفــلاح ولا غــرو فان اجتمــاع نفــوذ النسب وقوة الحســب يفعــلان ولا عجب فعــل المســتبد العــادل أى عنقـــاء مغـــرب ·

ثم ان الأصــلاء هم جرثومة البلاء فى كل قبيــلة ومن كل قبيل لأن بنى آدم داموا اخوانا متساوين الى أن ميزت الصـــدفة بعض افرادهم بكثرة النسل فنشــأت منهــا القــوات العصبية · ونشأ من تنازعهــا تميز أفراد على أفراد وحفظ هذه الميزة أوجــد الأصلاء فالاصلاء فى عشــيرة أو أمة اذا كانوا متقاربى القــوات استبدوا على باقى الناس وأسسوا حكـــومة اشراف ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيرا على باقى البيــوت يســتبد وحـــده ويؤسس الحكومة الفردية المقيــدة اذا كان لباقى البيــوت بقية بأس أو المطلقة اذا لم يبق أمامه ما يتقيه ·

بناء عليه اذا لم يوجد فى ملة اصلاء بالكلية أو وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب اقامت تلك الأمــة فعــلا أو حكما لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء ولكن لايتوالى بضــع

متولين الا ويصير انسالهم اصـــلاء يتناظرون كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمـــة اســـتعدادا للمغالبة واعادة التاريخ الأول ·

ومن أكبر مضار الاصـــلاء انهم ينهمكون أثنـــاء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة يسترهبون أعين الناس ويســـحرون عقولهم ويتكبرون بها عليهم · ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالأمر لايتركها الباقون لالفتهم لذتها ومضاهاة للمستبد · والمستبد نفسه لايحملهم على تركها بل يـــدر عليهم المـــال ويعينهم عليها ويعطيهم الالقـــاب والرتب وشيئا من النفوذ والتســـلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ولاجل ان يألفوها مديدا فتفسد أخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون أعوانا له بعد ان كانوا اضدادا ·

ويستعمل المستبد أيضا مع الاصلاء سياسة الشـــد والارخاء والالتفات والاغضاء كى لا يبطروا وسياسة القاء الفساد بينهم كى لا يتفقوا عليه وتارة ينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاء للناس وأخرى يستغنى عن بعضهم بأفراد من أدانى الرعية كسرا لشوكتهم · والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتى يجعلهم يترامون بين رجليه ثم يتخذهم لجاما لتذليل الرعية ؛ ويستعمل عين هذه السياسة مع العمال ورؤساء الأديان · وبهذه السياسة أو نحوها يخلو الجو لهذا المستبد يعصف وينسف الرعية كريش يقلبه الصرصر والسموم على أديم من الجمر ولله الأمر · نعم لله جل شانه الأمر حيث قال « وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول » ·

المستبد فى لحظة جلوسه على عرشـــه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انسانا فصار الها · ثم يرجع النظر فيرى نفسه فى نفس الأمر أعجز من كل عاجز وانه مانال مانال الا بواسطة

من حوله من الاعوان فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له ما الارث • وما العرش • وما التاج • وما الصولجان الا أوهام • مامكنك فى هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا سحرنا وخيانتنا لدينا ووجداننا ووطننا واخواننا فانظر كيف تعيش معنا •

ثم يلتفت الى جماهير الرعيـــة المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم أموات من حين • ولكن يتجلى فى فكره ان بينهم بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شؤنا وكلناك فى قضائها على مانريد ونبغى لاعلى ماتريد فتبغى •

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلا الاعوان الاعوان اسلمهم الزمام وازودهم بجيش من الاوغاد احارب بهم هؤلاء الامجاد وبغير هذا الحزم لايدوم لى استبداد ولا استعباد •

الحـــكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة فى كل فروعهـا من المســتبد الأعظم الى الشرطى الى الفراش الى كناس الشـــوارع ولا يكون كل صنف الا من أســفل أهل طبقته اخلاقا لان الاســافل لايهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بانهم على شاكلته وانصار لدولته وشرهون لاكل السقطات من ذبيحة الأمة • وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه • وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شـدة الاستبداد وخفته • فكلما كان المستبد حريصـا على العسف احتــاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه • واحتاج الى الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم فى المراتب بالطريقة المعكوسة وهى ان يكون أسفلهم طباعا أعلاهم وظيفة وقربا •

أن العقل والتاريخ والعيان يشهد بأن الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الاعظم فى الأمة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريفـات •

وربما يفتر المطالع كما اغتر بعض المؤرخين البسطاء بأن كثيرا من وزراء المستبدين كانوا يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بملامه ويظهرون له انه لو ســـاعدهم الامكان لعطلوا وفعلوا وافتدوا الأمة بأموالهم بل وحياتهم فكيف والحالة هـــذه يكون هؤلاء أكثر الأمـــة لؤما بل كيف ذلك ومنهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا على مقاومة الاســـتبداد فنالوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه ٠

فجواب ذلك ان المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه ٠ فهل يجوز العقل انه ينتخب لعصابته من يشك فيه انه لايوافقه على مراده ٠ كلا ٠ هل ينتخب وزيرا له من السوقة لم تسبق له تجربة ولا معرفة ما انطوى عليه ٠ كلا ٠ هل يمكن ان يكون الوزير متخلقا بالخير حقيقة وبالشر ظاهرا فيخـــدع المستبد بأعماله وهو هو الذى أعزه بكلمة ويعزله بكلمة ٠ كلا ٠ المستبد وهو من لايجهل ان الناس اعداؤه لظلمه فهل يأمن على بابه من لايثق به انه اظلم منه وابعد منه عن أعدائه ٠ كلا ٠

ثم كيف يكون الوزير أمينا من صـولة المستبد اذا لم يكن بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان حال كون الوزير محسودا بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعا لظالمهم وهو هدف فى كل ساعة للشكايات المحقة والوشايات المحرقة ٠ أم كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى أو الحياء أو العدل أو الوجدان أو الحكمة أو المرحمة ويقبل أن يكون جلادا للمستبد ٠

أم كيف يكون عند الوزير نزعة من الشـــفقة والرأفة على الأمة وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء مالم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك أبدا الا اذا يئس من اقباله عنده ٠ وان فعل فلا يقصد نفع الأمة انما يريد تهديد المستبد أو فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيوازره على وزره ٠

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الأمة كما فى الحكومات الدستورية • ومثله المشير هو مشير للمستبد مغير على الآمة لاغيورا عليهـا • خصوصا وهو الذى يعلم من نفسه ان المستبد قلده السيف وهو لم يدفع عنه صائلا ولا فتح له فتحا مبينا وانما عاهده على استعمال هـذا السيف فى رقاب اعداء استبداده وماهم الا الأمة المسكينة •

بناء عليه لايغتر أحـد من العقـلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا ولا ينخدع النبهاء لهم وان ناحو أو ان بكوا • ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا • لان ذلك كله ينافى سيرهم وسيرتهم ولا ضامن على أنهم أصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه هم أقرب ان لايقصـدوا بتلك المظاهر غير تهديد المسـتبد واستدرار دماء الرعية أى أموالها نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير انه يريد القاء سيفه للأمة لتكسره • وهو قد ألف عمرا طويلا لذة البذخ وعزة الجبروت • وهو من تلك الأمة التى قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكى فلا يكاد يلبس كم ثوبها الا ويتنمر على أمه وأبيه ويتمرد على أهل قريته وذويه ويكظ أسنانه عطشـا للدماء لايميز بين أخ أو عدو •

ولنذكر بعض الدلائل القطعية الدامغة التى تثبت ان كل رجال عهد الاستبداد لاخلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقا • وان كل مايتظاهرون به أحيانا من التذمر والتألم يقصدون به تغرير وخداع الأمـة المسـكينة ويطمعهم فى انخداعها لهم علمهم بأن الاستبداد القائم فى الحقيقة بهم والذى سيدوم أيضـا بهمتهم قـد أعمى أبصار الأمة وبصائرها وخدر أعصابها فهى لاترى الا هولا محيطا ولا تشعر الا بألم عام فتئن من البـلاء ولا تدرى من أين جاءها ، فتواسيها فئة باسم الدين يقولون لها هذا قضاء جاء من

السماء فلا مرد له بغير الصبر والرضاء ويغررها آخرون وهـــم أولئك الاعاظم المتوجعون بأنهم أطبـــاء المرض ويهتمون بازالتـه ومتحمسون لانقاذ الأمة من تلك الملمة · وهم وايم الحق كذابون مخادعون لايريدون الا التضليل دائما وتهديد المستبد أحيانا ·

فمن تلك الدلائل انهم لايستصنعون الا الاســافل الاراذل ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن صاحبهم المستبد الأكبر · ومنها انه قد يوجد منهم من لايتنزل لقليل الرشــوة ولكن لايوجد فيهم من يأبى كثيرها · ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح مشاركة المستبد فى امتصاص دم الأمة ذلك بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة التى تعادل بضع أضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم . ومنها انهم لايصرفون شيئا ولو سرا من هذه الأموال الطائلة فى سبيل مقاومة الاســتبداد الذى يزعمون انهم أعداؤه · ومنها ان أحدهم قد يكون مسرفا مبذرا فلا تكفيه الرواتب المعتدلة التى يمكن ان ينالها فى ظل شجرة العدالة ومنها انه قد يكون شحيحا مقترا فى نفقاته بحيث يخل فى شرف مقامه فلا يصرف نصف أو ربع راتبه مع انه يقبضه زائدا على أجر مثله بحجة حفظ شرف المقام العائد لشرف الأمة وبهذا الشح يكون خائنا ومهينا ·

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان أوجـد نادرا بعض وزراء ندموا على مافرطوا فتابوا وأنابوا ورجعوا لصف الأمة واستعدوا للكفارة المسيحية أو الشهادة الاسلامية · كما ويوجد فى كل زمان بعض شواذ من الوزراء والقواد عريقين فى الشهامة فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد الأربعين وربما السبعين ظهورا بينا تتلألأ فى محياه ثريا الاخلاص ·

والنتيجة ان المســتبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حــول له الا بالمتمجدين والأمة المأسورة ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء حتى اذا اكفهرت سـماء

عقول بنيها قيض الله لها منها قادة أبرارا يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله فى ذلك لذتهم ولمثله خلقهم : كما خلق آخرين فساقا فجارا مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذى يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم ٠

★★★

الاستبدال والمال

لو كان الاستبداد رجلا وأراد ان يحتسب وينتسب لقال « أنا الشر وأبى الظلم وأمى الاساءة وأخى الغدر وأختى المسكنة وعمى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة ووطنى الخراب وعشيرتى الجهالة » ٠

ويصح فى وصف المال ان يقال : القوة مال والعقل مال والعلم مال والدين مال والثبات مال والجاه مال والجمال مال والترتيب مال والاقتصاد مال ٠ والحاصل كل ماينتفع بثمرته الانسان هو مال وكل هذه الأسباب وثمراتها معرضة لافساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال ٠

ان النظام الطبيعى فى كل الحيوانات حتى فى السمك والهوام الا العنكبوت بعد اخصابه ان النوع الواحد منها لايأكل بعضه بعضا والانسان يأكل الانسان ٠ ومن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله أى من مورده الطبيعى والانسان حريص على التماسه من أخيه ٠

عاش الانسان دهرا طويلا يأكل لحم الانسان فعلا الى أن تمكن حكماء الصين والهند من ابطال أكل اللحم كليا والى ان جاءت الشرائع الدينية الأولى فى الجهات السائرة ابتداء بتخصيص ما يؤكل من الانسان بالقربان الذى يذبح للمعبود ثم ابقت القربان

وجعلت الذبيحة طعمه للنيران حتى تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه · وقد استبدل الله عز شأنه على يد ابراهيم عليه الصلاة والسلام قربان البشر بالحيوان وأتبعه موسى وباقى الانبياء عليهم السلام وبه جاء الاسلام · أما عيسى عليه السـلام فانه استعاض قربان الحيوان بالخبز ولـكن بقى ذلك مقصـورا على الكنائس ولم يعم ·

وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الآن · على ان الاستبداد المشئوم أحيـا سنة أكل البشر بشكل أدهى وأمر · وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين فكان الأولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من أعـدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم فصدا بمبضع الظلم يمتصـون دمـاء حيـاتهم بغصـب أموالهم ويقصرون أعمـارهم باستخدامهم سـخرة فى أعمالهم أو بغصب ثمـرات اتعابهم · وهكذا لا فـرق بين الأولين والآخرين فى نهب الأعمـار وازهاق الأرواح الا فى الشكل ·

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوى العلاقة بالظلم القائم فى فطرة الانسان ولهذا رأيت ان لابأس فى الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعى المحمى بقلاع الاستبداد السياسى · فمن ذلك ان البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون نصفهم كل على النصف الآخر ويشكل أكثرية هذا النصف · نساء
ومن النساء : النساء هن النوع الذى عرف مقامه فى الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس وانه يكفى للالف منه ملقح واحد وان باقى الذكور يساقون للمخاطر والمشاق أو يستحقون ما يستحقه ذكـر النحل وبهذا النظر اقتسمن النساء مع الذكور اعمال الحياة قسمة ضيزى وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الاشغال بدعوى الضعف وجعلن نوعهن مطلوبا عزيزا بايهام العفة · وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين فى الرجال وجعلن نوعهن

يهين ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان · وعلى هذا القانون يربون البنات وألبنين ولهذا سماهم بعض الاخلاقيين بالنصف المضر · وقال ان الضرر يترقى مع الحضارة والمدنيـــة على نسبة الترقى المضاعف · فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة أعماله والحضرية تسلب اثنين من ثلاث · والمدنية تسلب خمسة من ســتة : وهكذا تترقى بنت العواصم ·

ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضا فان رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم وعددهم لايتجـــاوز الواحد فى المائة يتمتعون بنصف مايتجمد من دم البشر أو زيادة ينفقونه فى الرفه والاسراف مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانا ولا يفكرون فى ملايين من الفقراء يعيشون فى بيوتهم فى ظلام ·

ثم أهـل الصنائع النفيســـة والكمـــالية والتجار الشرهون والمحتكرون وأمثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بواحد فى المائة يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الالوف من الصناع والزراع · وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هى قسمة جاء بها الاستبداد السياسى ·

نعم لايقتضى ان يتساوى العالم الذى صرف زهوة حياته فى تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم فى ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ولكن العدالة تقتضى غير ذلك التفاوت بل تقتضى الانسانية ان يأخذ الراقى بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه فى معيشته ·

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغى وبغى ونسى ربه وعبد المـال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه كأنه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط لا شأن له غير الغذاء والتهاك · وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمـــال كاد ينحصر

أكبرهم الانسان فى جمع المال ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم وبسر الوجود وروى كريسو المؤرخ الروسى ان كاترينا شكت كسل رعيتها فارشدت الى حمل النساء على الخلاعة ففعلت واحدثت كســـوة المراقص فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال وفى ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجـــال الاسراف ٠ وهكذا المستبدون لاتهمهم الاخلاق انما يهمهم المال ٠

المال عند الاقتصاديين ماينتفع به الانسان وعند الحقوقيين ما يجرى فيه المنع والبذل وعند السياسيين ماتستعاض به القــوة وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفـــة ٠ المال يستمد من الفيض الذى أودعه الله تعالى فى الطبيعة ونواميسها ولا يملك أى لايتخصص بانسان الا بعمل فيه أو فى مقابلة ٠

التمول أى ادخار المـــال طبيعـــة فى بعض أنواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا أثر لطبيعة التمول فى الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه ٠ الانسان تطبع على التمول لدواعى الحاجة المحققة أو الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الأراضى الضيقة الثمرات على أهلهـــا أو الأراضى المعرضة للقحط فى بعض السنين ٠ ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول فى البلاد المبتلاة بجوار الطبيعة أو جور الاستبداد ٠ وربما يلتحق بها أيضا الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية فى البلاد التى ينقصها الانتظام العام ٠

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومى التى جاء بها الاسلام ولكن لم تدم أكثر من قرنين كان فيهمـــا المســـلمون لايجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات ٠ وذلك ان الاسلامية كما اسست حكومة ديمقراطية وقد سبق ايضاحها اسست أيضـــا أصول هذه المعيشة التى يتمنى ما هو من نوعها اغلب العالم المتمدن الافرنجى مع أنه تسعى وراءها منهم جمعيات منتظمة مكونة من

ملايين كثيرة ومع أن لها نوع من الأصل فى الانجيل وهو تخصيص عشر الأموال للمساكين ·

وهذه الجمعيات تطلب التساوى أو التقارب فى الحقوق والحالة المعيشية بين البشر وتسعى ضد الاستبداد المالى ذلك التساوى والتقارب المقرران فى الاسلامية دينا بوسيلة أنواع الزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين ولا يخفى على المدقق ان جزءا من أربعين من رؤوس الأموال يلحق فقراء الأمة بأغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة بأخلاق الأفراد · وكذلك تركت الاسلامية معظم الأراضى الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذى لايجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال ·

ثم ان التمول لاجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والا كان حرص التمول من أقبح الخصال · الشرط الأول ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أى باحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو فى مقابل عمل أو فى مقابل ضمان ·

والشرط الثانى ان لا يكون فى التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهى أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم فى حضن اجزائها فجاء المستبدون الظالمون الأولون ووضعوا أصولا لحمايتهم من أبنائها وحالوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قد حماها ألف مستبد مالى من الانجليز ليتمتعوا بثلثى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده · وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا

وستفوقها مآلا · وكم من البشر فى أوربا المتمدنة وخصوصا فى لندره لايجد أحدهم أرضا ينام عليها متمددا بل ينامون فى الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية فيتلوون عليها يمنة ويسرة ·

وحكومة الصين المختلة النظام فى نظر المتمدنين لاتجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا أى أقل من خمسة أفدنة مصرية وروسيا المستبدة القاسية فى عرف أكثر الأوربيين وضعت أخيرا لولاياتها البولونية والغربية قانونا أشبه بقانون الصين وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الأمر فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا تصبح الأراضى الزراعية بعد خمسين عاما أو قرن على الأكثر كايرلانده الانجليزية المسكينة التى وجدت فى مدى ثلاثة قرون شخصا واحدا حاول أن يرحمها فلم يفلح وأعنى به غلادستون · على أن الشرق ربما لايجد فى ثلاثين قرنا من يلتمس الرحمة له ·

والشرط الثالث لجواز التمول · هو ان لايتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة فى الانسان فانه ليطغى ان رآه استغنى والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة السياسية والاخلاق والعمرانية حرمت الربا بقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادى ففيه معنى الغصب وبدون عمل ففيه الالفة على البطالة المفسدة للاخلاق وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك ومن المشاهد الذى لا خلاف فيه أن ليس من كسب لاعار فيه أربح من الربا مهما كان معتدلا وان بالربا تربو الثروات فيختل التساوى بين الناس ·

وقد نظر الماليون والاقتصـــاديون فى أمر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لابد منه ٠ أولا لأجل قيام المعاملات الكبيرة ٠ وثانيا لأجل أن النقود الموجودة لاتفى للتداول فكيف اذا أمسك المكتنزون قسما منها أيضا ٠ وثالثا لاجل أن كثيرين من المتمولين لايعرفون طرائق الاسترباح أو لايقدرون عليها كما أن كثيرا من العارفين بها لايجدون رءوس أموال ولا شركاء عنان ٠ فهذا النظر صحيح من وجه انمـاء ثروات الأفـــراد والأمم أما السياسيون والأخلاقيون فينظرون الى أن ضرر ذلك فى جمهور الأمم أكبر من نفعها لأن هذه الثروات الأفرادية تمكن الاستبداد الداخلى فتجعل الناس صنفين عبيدا وأسيادا وتقوى الاستبداد الخارجى فتسهل التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة ما لا وعدة وهذه مقاصد فاسدة فى نظر الحكمة والعدالة ولذلك حرمت الديانات الربا تحريما مغلظا ٠

حرص التمول وهو الطمع القبيح يخف كثيرا عنـد أهالى الحكومات العادلة المنتظمة مالم يكن فساد الأخـلاق متغلبا على الأهالى كأكثر الأمم المتمدنة فى عهدنا لآن فساد الأخلاق يزيد فى الميل الى التمول فى نسبة الحاجة الاسرافية ٠ ولكن تحصيل الثروة فى عهد الحكومة العادلة عسر جـدا وقد لا يتأتى الا من طـريق المراباة مع الأمم المنحطة أو التجارة الكبيرة التى فيها نوع احتكار أو الاستعمار فى البلاد البعيدة مع المخاطرات ٠

وهذا الحرص القبيح يشتد كثيرا فى رءوس الناس فى عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدى على الحقوق العـامة وبغصب ما فى أيـدى الضعفاء ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل انسان ترك الدين والوجدان والحياة جانبا وانحط فى أخلاقه الى ملاءمةِ المسـتبد الأعظم أو أحد أعوانه وعماله ويكفيه ان يتصـــل بباب أحـدهم

ويتقرب من اعتابه ويظهر له أنه فى الاخـــلاق من أمثاله وعلى شاكلته · ويبرهن له ذلك بأشياء من التملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس والدلالة على السلب ونحو ذلك · ثم بعد أن يتمكن ويطلع على بعض الخفايا والاسرار التى يخاف المستبد من ظهورها خوفا حقيقيا أو وهمياً يكسب هذا المنتسب رسوخ القدم بل يصير هـــو بابا لغيره وهكذا يحصـــل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلا · وهذا أعظم أبواب الثروة فى الشرق والغرب ويليه الاتجار بالدين ويليه الربا ثم الملاهى ·

وقد ذكـــر المدققون أن ثروة بعض الأفـــراد فى الحكومات العادلة أضر كثيرا منها فى الحكومات المستبدة لأن الاغنيـــاء فى الأولى يصرفون قوتهم المالية فى افســـاد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد أما الاغنياء فى الحكومات المســـتبدة فيصرفون ثروتهم فى الابهة والتعاظم ارهابا للناس وتعويضـــا للسفالة الحقيقية بالتعالى الباطل ويصرفون الاموال فى الفسق والفجور ·

بناء عليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقـــوى منهم من الاضعف · وتزول أيضا والحمد لله قبل أن يتعلم أصحابها أو ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو وكيف يستعبدون بهـــا الناس استعبادا أصوليا مستحكما كما هو الحال فى أوروبا المتمدنة المهددة بشرور الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالى فيها ·

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد فى مطلق المال فنقول - ان الاستبداد يجعل المـــال فى أيدى الناس عرضـــة لسلب المســـتبد وأعوانه وعماله غصبا أو بحجة باطلة وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين فى ظل أمان الاستبداد وحيث

المال لايحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقداء على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة ٠

حفظ المال فى عهد الادارة المستبدة أصعب من كسبه لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ٠ ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة ٠ ولهذا يقال فى مثال هؤلاء أن حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ويقال العاقل من يخفى ذهبه وذهابه ومذهبه ويقال أسعد الناس الصعلوك الذى لايعرف الحكام ولا يعرفونه ٠

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء أعداؤه فكرا وأوتاده عملا فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون ويستدرهم فيحنون ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ويتحبب اليهم ببعض الأعمال التى ظاهرها الرأفة يقصد بذلك أن يغصب أيضا قلوبهم التى لايملكون غيرها ٠ والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة خوف البغاث من العقاب فهم لايجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار كأنهم يتوهمون ان داخل رءوسهم جواسيس عثيهم ٠ وقد يبلغ فساد الأخلاق فى الفقراء أن يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأى وجه كان رضاؤه ٠

قيل فى مدح المال ان أكبر مايحل المشكلات الزمان والمال ٠ وقالوا لايصان الشرف الا بالدم ولا يتأتى العز الا بالمال ٠ وورد فى الأثر ٠ ان اليد العليا خير من اليد السفلى وان الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ٠ ولم يكن قديما أهمية للثروة العمومية أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغاليات علم ومال فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال على أن الأمم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية فأصبحت منزلتها فى المجتمع الانسانى كالانعام تتناقلها الأيدى ٠

هذا وللمال الكثير آفات على الحيـاة الشريفـة ترتعد منها فرائض أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتـلاك دواعى الترف والسرف ٠ وينظرون الى المال الزائد على الحاجة انه بلاء فى بلاء فى بلاء أى أنه بلاء من حيث التعب فى تحصيله وبلاء من حيث القلق على حفظه وبلاء من حيث ربطه صاحبه على وتد الاستبداد وأما المكتفى فيعيش مطمئنا مستريحا أمينـــا بعض الامن على دينـــه وشرفه وأخلاقه ٠

قرر الاخلاقيون ان الانسان لايكون انسانا مالم تكن له صنعة مفيدة تكفى معاشه باقتصاد لاتنقصه فتذله ولا تزيد عليه فتطغيه ٠ وهذا معنى الحديث (فاز المخفوق) وحديث (أسألوا الله الكفاف من الرزق) ويقال الغنى غنى القلب ٠ والغنى من قلت حاجته ٠ والغنى من استغنى عن الناس ٠ قال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل مايملك فمن يملك عشرة يرى نفســـه محتاجا لالف ٠ وهذا معنى الحديث (لو كان لابن آدم واد من ذهب « وفى رواية من غنم » لتمنى أن يكون له واد آخر) ٠

ولا يقصـــد الأخلاقيون من التزهيد فى المـال التثبيط عن كسبه ٠ انما يقصـــدون أن لايتجاوز كسبه الطـــرائق الطبيعية الشريفة ٠ أما المستبدون فلا يهمهم الا أن تستغنى الرعيـــة بأى وسيلة كانت والغربيون منهم يعينون الأمة على الكسب والشرقيون لايفتكرون فى ذلك وهذه من جملة الفروق بين الاستبداديين الغربى والشرقى التى منها ان الاستبداد الغربى يكون أحكم وأرسخ وأشد ولكن مع اللين ٠ والشرقى يكون مقلقلا سريع الزوال ولكنه مزعج ٠ ومنها أن الغربى اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ســـاعدت الظروف أن تقيم ٠ أما الشرقى فيزول ويخلفه استبداد شر منه لان من دأب الشرقيين أن لايفتكروا فى مستقبل قريب كان أكبر هممهم منصرف الى ما بعد الموت فقط ٠

وخلاصة القول ان الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء · أكثر هولا من الحريق · أعظم تخريبا من السيل · أذل للنفوس من السؤال · داء اذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء والأرض تناجى ربها بكشف البلاء كيف لاتقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء واسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيجسدهم الأحياء ·



الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يتصرف فى أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ويجعله حاقدا على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه · وفاقدا حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه · وضعيف الحب لعائلته لانه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها · ومختل الثقة فى صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لايملكون التكافؤ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم يأكون · اسير الاستبداد لا يملك شيئا ليحرص على حفظه لأنه لايملك مالا غير معرض للسلب ولا شرفا غير معرض للاهانة · ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل فى سبيلها ·

وهذه الحال تجعل الأسير لايذوق فى الكون لذة نعيم غير اللذات البهيمية بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت تعيسة ، وكيف لايحرص عليها وهو لايعرف غيرها أين هو من الحياة الأدبية أين هو من الحياة الاجتماعية · أما الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ولا يعرف

ذلك الا من كان منهم أو كشف الله عن بصيرته ومثال ذلك الشيوخ فانهم عندما تمسى حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون من أبواب القبور يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب فى مقتبل العمر فى مقتبل الملاذ فى مقتبل الآمال ٠

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضنى الاجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة فى الناس ٠ والعوام الذين هم قليلو المادة فى الأصل قد يصل مرضهم العقلى الى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر فى كل ماليس من ضروريات حياتهم الحيوانية ويصل تسفل ادراكهم الى أن مجرد آثار الابهة والعظمة التى يرونهـا على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم ٠ ومجرد سماع ألفاظ التفخيم فى وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم فيرون ويفكرون أن الدواء فى الداء ٠ فينصاعون بين يدى الاستبداد انصياع الغنم بين أيدى الذئاب حيث هى تجرى على قدميها جاهدة ٠ الى مقر حتفها ٠

ولهذا كان الاستبداد يستولى على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلا عن الأجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب على تلك الأذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوى فيكون مثلهم فى انقيادهم الاعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والارشاد مثل تلك الهوام التى تترامى على النار وكم هى تغالب من يريد حجزها عن الهلاك ٠ ولا غرابة فى تأثير ضعف الأجسام فى اضعاف العقول فان فى المرضى وخفة عقولهم وذوى العاهات ونقص ادراكهم شاهدا بيننا كما يظهر الحال أيضا بأقل تدقيق نظر فى فرق الصحة وغزارة الدم وقوة الاجسام وجمال الهيئات بين جموع الاحرار وجموع الاثرياء ٠

ربما يستريب المطالع اللبيب الذى لم يتعب فكره فى درس طبيعة الاستبداد من أن الاستبداد المشئوم كيف يقوى على قلب

الحقائق ٠ فأقول نعم الاستبداد يقلب الحقائق فى الاذهان حتى أنه قد مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدا لاستبدادهم ٠ وقد وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كأنها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا ٠ كما أن الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهى هى قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا وقد قبل الناس من الاستبداد ماساقهم اليه من اعتقاد ان طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكى المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين هو الصالح الأمين ٠ وقد أتبع الناس الاستبداد فى تسميته النصح فضولا والغيرة عداوة والشهامة عتوا والحمية جنونا والانسانية حماقة والرحمة مرضا ٠ كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة والتحيل كياسة والدناءة لطف والنذالة دماثة ٠

ولا غرابة فى تحكم الاستبداد على الحقائق فى أفكار البسطاء انما الغريب أغفاله كثيرا من العقلاء ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام لمجرد انهم كانوا أكثروا فى قتل الانسان وأسرفوا فى تخريب العمران ومن هذا القبيل فى الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين ٠ وكذلك افتخار الاخلاف بأسلافهم المرحومين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان والمقربين ٠

وقد يدخل على الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة فى الادارة الحرة ويسلمون له بها فيقولون الاستبداد يلين الطباع ويلطفها والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق أن هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن ارادة واختيار ٠ أو يقولون هو يربى النفوس على احترام الكبير وتوقيره والحق انه مع الكراهة والبغض

لا عن ميل وحب · ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق فيه انه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين · ويقولون هو يقلل الجرائم والحق أنه يخفيها فيقل تعديدها لا عددها ·

تفعل العدالة فى اخلاق البشر ما تفعله العناية فى انماء الشجر فالأقوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت أشجارها وسقم أكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة وان صادفت بستانيا يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها قويت وأينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة واذا بليت بخطاب لايعنيه الا عاجل الاكتساب أفسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة ومتى كان البستانى أو الحطاب غريبا لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول فهناك الطامة وهناك البوار فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازاء الأخلاق مقام ذلك الحطاب الذى لايرجى منه غير الافساد ·

لا تكون الأخلاق أخلاقا ما لم تكن مطردة على قانون وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس · ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح لا نظام ولا ارادة · وما هى الارادة هى أم ناموس الأخلاق · هى ما قيل فيها تعظيما لشأنها · لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة · هى تلك الصفة التى تفضل الحيوان على النبات فى تعريفه بانه متحوك بالارادة فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوان فضلا عن الانسانية لأنه يعمل بأمر غيره لا بارادته · ولهذا قال الفقهاء لانية للرقيق فى كثير من أحواله انما هو تابع لنية مولاه ·

أسير الاستبداد لا نظام فى حياته قد يصبح غنيا فيضحى شجاعا كريما ويمسى فقيرا فيبيت جبانا خسيسا وهكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها بلا وجهة . فالأسير لا يبغى على الأسير فيزجر أو لا يزجر ويبغى عليه فينصر أو لا ينصر ويجوع يوما فيضوى ويخصب يوما فيتخم . يريد أشياء فيمنع ويأبى شيئا فيرغم . ومن كانت هذه حاله كيف يكون له أخلاق وان وجد ابتداء فكيف لا يفسد .

أقل ما يؤثر الاستبداد فى أخلاق الناس انه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان ويعين الأشرار على اجراء غى نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لأن أكثر أعمالهم تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبى ذكر الفاجر بما فيه .

أقوى ضابط للاخلاق النهى عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو فى عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوى المنعة مع الغيرة وقليل ما هم وقليلا ما يفعلون وقليلا ما يفيد نهيهم لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا بل ولا يملكون من انفسهم شيئا وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم فى الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد اما المتصدرون فى عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقا ولا أقول غالبا من المتملقين المرائين وما أبعد هؤلاء عن التأثير لأن النصح الذى لا اخلاص فيه هو بذر ميت . اما النهى عن المنكرات فى الادارة الحرة فيمكن كل غيور أن يقوم به بأمان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والأقوياء سواء ويفوق سهام قوارصه على
فى مواضيع تخفيف الظلم
الذى يعدى ويجدى .

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط • ورأت أن تحمل مضرة الفوضى فى ذلك خير من التحديد لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أى الحرية• وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة « ولا يضار كاتب ولا شهيد » •

وهذه الأمم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية • وذلك منطبق تماما على ما أمر به القرآن الكريم فى آية « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وفى كمالة هذه الآية وهى « أولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة فى ذاتها الممقوتة طبقا عند المستبد وأعوانه •

الخصال تنقسم أولا الى حسنة طبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة وقبيحة طبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع • وثانيا الى خصال كمالية جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع وهذا القسم ربما يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه انما يمتثله المنتسب للدين احتراما أو خوفا • والقسم الثالث الخصال الاعتيادية وهى ما يكتسبه الانسان بالوراثة او بالتربية أو بالألفة فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله •

ثم ان التدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها فى بعض ويكون مجموعها تحت تأثير الألفة بحيث كل

خصلة منها ترسخ او تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الألفة وانقطاعها ، فالقاتل مثلا يستنكر صنيعته فى المرة الثانية كما استقبحها من نفسه فى الأولى وهكذا يخف الجرم فى وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعى له كما هى حالة الجبارين وغالب السياسيين فانهم يستبيحون اهراق الدماء لغاياتهم السياسية ٠ ولهذا يصح وصف هذا الصنف بالجلادين ولا فرق فى القتل بالسيف أو القلم بقطع الأوداج أو بايراث الشقاء ٠

وكذلك يكون أسير الاستبداد لا سيما اذا كان عريقا فيه فانه يرث شر الخصال ويتربى على أشرها ويصحبه الشر مدى العمر ، فمن أين تأتيه الخصال الحسان ألا تكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية الفته الرياء اضطرارا حتى يصير ملكة فيه فيفقد الثقة من نفسه فلا يقدر أن يحكم عليها بخلق مستقر فيه ، فلا يمكنه مثلا أن يجزم بأمانته ويضمن ثباته فيعيش سىء الظن فى حق ذاته ، مترددا فى أعماله لواما نفسه على اهماله شئونه ، شاعرا بنقصه ولكن لا يشعر من أين أتاه فيتهم الخالق ، والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئا ، ويتهم تارة دينه وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير أنه خلق حرا فأسر ٠

أجمع الأخلاقيون على أن المتلبس بشائبة من القبائح الخلقية الأصلية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها ـ وهذا معنى « اذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه » فالمرائى مثلا ليس من شأنه أن يظن البراءة فى غيره من شائبة الرياء كليا ٠ الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعدا كبيرا ٠ كأين يكون بينهما مغايرة فى الجنس والدين أو تفاوت مهم فى المنزلة كصعلوك وأمير كبير ٠ ومثال ذلك الفلاح وأمثاله فى الشرق يأمن الافرنكى فى

معـــاملته ويثـــق بوزنه وحســـــابه ولا يأمن ويثـــق بابن جـــلدته ، وكذلك الافرنجى اذا عهـد من نفســه الخيـانة قـد يأمن الشرقى ولا يأمن مطلقـا ابن جنســه ، وهذا الحـكم صـادق على عـكس القضية أيضـا ، أى أن الأمين يظن النـاس أمنـاء خصـــوصا أشباهه فى النشأة ، وهذا معنى « الكريم يخـدع » ، وكـم يذهـل الأمين فى نفســه عن اتبــاع حكمة الحـزم فى اساءة الظـــن فى مواقعه اللازمة ·

اذا علمنا أن من طبيعة الاسـتبداد ألفة النـاس بعد الأخلاق الرديئة وان منها ما يضـعف الثقة بالنفس ولذلك يقـل فيهم أهل العمـل وأهـل العـــزائم ، كمـا ويفقدهم ثقتهم بعضـهم ببعض فيعـلم من ذلك أن الاسراء محرومون طبعا من ثمرة الاشـتراك فى أعمــال الحيـاة يعيشـون مساكين بائسـين متـواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشـلين ، والعـاقل الحـكيم لا يلومهم بل يشــفق عليهـم ويلتمس لهـم مخـرجا ويتبـع أثر أحـكم الحكمـاء القائل « رب ارحم قومى فانهم لا يعلمـون » اللهـم اهـد قومى فانهـم لا يعلمـــون ·

وهنا اســتوقف المطـالع واستلفته الى التأمل فى ما هى ثمرة الاشــتراك التى يحـرمها الاسراء فأذكر بأن الاشـــتراك هـو أعظم سر الكائنــات ، به قيـــام كل شيء ما عـدا الله وحـده ، به قيــام الاجرام السماوية ، وبه قيـام المواليـد ، به قيـــام حيـاة العالم العضوى · به قيـام الأجناس والأنواع ، به قيـام الأمم والقبائل ، به قيام العـائلات وأعضاء الاجسام · نعم فيــه سر الحيـاة ، فيه سر تضـاعف القـوة بنسبة ناموس التربيع ، فيـه سر تجـــديد الاستمرار على الأعمال التى لا تفى بهـا أعمـار الأفراد · نعـــم الاشتراك هو السر كل السر فى نجـاح الأمم المتمدنة · به أكملوا ناموس حياتهم ، به ضبطوا نظـام حكوماتهم ، به قاموا بعظـــائم الأمور ، به نالوا كل ما يغبطهم عليهم غيرهم ·

ورب قائل يقول : ان سر الاشـــتراك ليس بالأمـر الخفى ، وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الأسماع ولم يندفع للقيام بـه فى الشرق غير اليابانيين والبـوير ، فمـا السبب ؟ فأجيبـه بأن الكتـاب كتبـوا وأكثروا وأحسـنوا فيما فصـلوا وصوروا ، ولكن قاتل الله الاســتبداد وشـؤمه • جعلهـم يحصرون أقـوالهم فى الدعوة الى الاشتراك وما بمعنـاه من التعاون والاتحـاد والتحابب والاتفاق ، ومنعهم من التعرض لذكر الأسـباب كليـا • أو اضطرهم الى الاقتصار على بيـان الأسـباب الأخيرة فقط فمن قائل مثلا الشرق مريض وســببه الجهـــل ، ومن قائل الجهـــل بلاء وسببه قلة المـدارس ، ومن قائل قلة المدارس عار وسببه عـدم التعـاون على انشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوى الشأن •

وهذا أعمـق ما يخطـه قـلم الكاتب الشرقى ، كأنه وصـل الى السبب المـانع الطبيعى أو الاختيـارى • والحقيقـة أن هنـاك سلسلة أسـباب أخـرى تنتهى عنـد التحـول الى القيـــام بوظيفة الارشـاد للزوم التخلص من الاســتبداد • والســبيل الى تكاثر الطـــلاب •

وقائل آخر يقـول : الشرق مريض مريض وســـببه فقـــد التمسك بالدين ، ثم يقف • مع انه لو تتبـــع الأسباب لبلـــغ الى الحكم بأن التهـاون فى الدين ناشىء من الاستبداد • وان العافية المفقـودة هى الحرية السـياسية فيرشد اخـوانه الى طلبها ومهرها كثرة الطـلاب •

وقد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعـــالى بوظيفة الأخـذ وقـال آخـــر يقـــول : الشرق مريض مريض وســـببه فقـــد بيد الأمم فى بحثهم عن المهلكات والمنجيـات ، على أن فســاد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطـــاب ، وأن معـاناة اصـــلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها الى الحكمـة البالغة

والعزم القوى . وذكروا أن فســـاد الأخلاق يفشــو من المســتبد وأعوانه من الوزراء الى الفراشــين ، ومن القـــواد الى الأنفــار . ومن هؤلاء يدخل فساد الأخلاق بالعــدوى الى كل البيوت . لا سيما بيوت الطبقات العليا التى تتمثــل بهــا السفلى . وهـــكذا يتعمم الفساد وتمسى الأمة يبكيها المحب ويشمت بهــا العـــدو . دتبيت وداؤها عيــاء لا يرجى له شفاء .

وقد سلك الأنبياء عليهــم الســلام فى انقــاذ الأمم من شقائها مسلك الابتداء أولا بفك العقول من تعظيــم غيــر الله والاذعــان لســواه ، وذلك بتقـــوية حسن الايمان المفطور عليــه وجــدان كل انسان . ثم جهــدوا فى تنوير العقـــول بمبادىء الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته أى حــريته فى أفكاره . واختيــاره فى أعماله ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد ، وسدوا منبع الفساد . ثم بعد اطلاق زمام العقول صاروا ينظرون الى الانسان بأنه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الأخلاق ، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية .

والحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء عليهم السلام فى سلوكهم هذه الطريق وهذا الترتيب . أى بالابتداء من نقطة دينية توصلا لتحــرير الضمائر ثم باتباع طــريق التربية والتهذيب بدون فتــور ولا انقطــاع .

أما المتأخرون الغربيون فمنهم فئــة سلكوا طريقــة الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفيسة الى فضاء الانطلاق وتربية الطبيعة ، زاعمين أن الفطرة فى الانسان كافية لضبط النظــام . وقد غرهم بهذه الطــريق زهوة مدخلها واعتقادهم أن الدين والاستبداد كلمتان بمعنى واحــد .

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك أنهم وجدوا أممهم قــد فشــا فيها نور العلم ، ذلك العــلم الذى كان منحصرا فى خـــدمة

الدين عند المصريين والأشوريين ، ومحتكرا فى أبناء الأشــراف عند الغرناطيين والرومان ، ومخصصا فى اعداد من الشــبان عند الهنديين واليونان ، حتى جاء العرب بعد الاسلام واطلقوا حـرية العـلم ، واباحوا تنـاوله لـكل متعـلم ، فانتقل الى أوروبا حـرا ، فتنورت به عقول الأمم على درجات وفى نسـبتها ترقت تلك الأمم فى النعيـم وانتشرت وتخــالطت وصــار المتـأخر منهـا يعبـط المتقــدم ويتنغص من حالتــه ويتطلب اللحــاق به ويبحث عن وسائله • فنشأ من ذلك حركة معـرفة الخير والغيرة على نواله حركة معرفة الشر والأنفـة من الصــبر عليـه ، حـركة تسـتدعى الســير الى الأمام رغم كل معارض • فاغتنم زعماء الحرية قـوة هذه الحركة وأضافوا اليهـا قوات أدبية شتى ، كاستبدال ثقـالة وقار الدين بزهوة عروس الحــرية ، حتى أنهم لم يبـالوا بتمثيل الحرية بحسـناء خليعـة تختلب النفــوس ، وكاسـتبدال رابطة الاشتراك فى الطاعة للمستبدين برابطة الاشـــتراك بحب الوطن • وهكذا جعلوا قوة حـركة الأفكار تيـارا سلطوه على الرؤوس من أهـل السياسة والدين • على أن هـؤلاء الزعمـاء أخـذوا من مهجـــورات دينهم قاعـدة « الغـاية تبرر الواسـطة » وقاعـدة « تثقيل الذمة مبيح » ودفعوا النــاس بهما الى ارتكاب الجـرائم الفظيعة التى لا يستبيحها الحكيم الشرقى لما بين أبنـــاء الغـرب وأبناء الشرق من التباين فى الغرائز والأخلاق •

نعم الغربى مادى الحياة قوى النفس ، شـديد المعـاملة . حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شىء من المبـــادىء العالية والعــواطف الشريفـة التى نقلتهـا له مسيحية الشرق ، فالجرمانى مثـلا جاف الطبع يرى أن العضــو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت • ويرى كل الفضيلة فى القوة ، وكل القوة فى المـال ، فهو يحب العلم ولكن لأجـل المـال ويحب المجد ولكن لأجل المال • واللاتينى منه مطبوع على العجب

والطيش · يرى العقل فى الأطلاق والحياة فى خلع الحياء والشرف فى الزينة واللباس · والعز في التغلب على الناس · أما أهل الشرق فهم أدبيون ، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان ، والرحمة ولو فى غير موقعها · واللطف ولو مع الخصم ، والفتوة والقناعة والتهاون فى المستقبل ولهذا ليس من شأن الشرقى أن يجوز ما يستبيحه الغربى وأن جوزه لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه ، فالشرقى مثلا يهتم فى شأن ظالمه المستبد فاذا زالَ لا يفكر فيمن يخلفه ·

والحاصل أن الحكماء المتأخرين الغربيين ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لاختصار الطريق فسلكوه واستباحوا ما استباحوا حتى أنهم استباحوا فى التمهيد بتشجيع المستبدين على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليهم وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الانسان انسانا ·

وقد سبق هؤلاء المتأخرين فئة اتبعت أثر النبيين ولم تحفل بطول الطريق وتبعه فنجحت ورسخت وأعنى بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسى جمهورية الفرنسيس ، بل رتقوا فتوق الدهر فى دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحا لتجديد خليق أخلاقهم ·

وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء يجددون النظر فى الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى أصله المبين البرىء من حيث تمليك الارادة والسعادة فى الحياة ·

من كل ما يشين ٠ المخسف شقاء الاستبداد والاستعباد ، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين ، المهيء قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انسانا ، وبه لا بالكفر يعيش الناس اخوانا ٠

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم ، مرتاحين للهو والهزل ، تسكينا لآلام أساوة النفس ، واخلادا الى الخمول والتسفل طلبا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب ، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف . ينتظرون زوال العناد بالتواكل أو التمنى أو الدعاء أن يتربصون صدفة مثل التى نالتها بعض الأمم فليتوقعوا اذن أن يفقدوا الدين كليا فيصبحوا وما الصبح عليهم ببعيد دهريين لا يدرون أى الحياتين أشقى ، أو فلينتظروا ما حاق بالأشوريين والفينيقيين وغيرهم من الأمم المنقرضة ، والله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ٠



الاستبداد والتربية

خلق الله فى الانسان استعدادا للصلاح ، واستعداد للفساد فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه ، اى أن التربية تربو باستعداده جسما ونفسا وعقلا ، أن خيرا فخير وان شرا فشر ٠ وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الاسقام ، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعالم ٠ بناء عليه ، تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ٠

استعداد الانسان لا حد لغايته فقد يبلغ الكمـال الى ما فوق مرتبة الملائكة ، لأنه هو المخلوق الوحيد الذى حمل الأمانة وقد أبتها كافة العوالم ، ويصح أن تكون الأمانة هى تخير تربية النفس على الخير أو الشر وقد يتـلبس بالرذائل حتى يكون أحـط من الشياطين ، بل أحط من المستبدين لأن الشياطين لا ينـازعون الله فى عظمته ، والمستبدون ينازعونه فيها ولكن لحاجة فى النفس والمتناهون فى الرذالة قد يقبحون عبثا لا لغرض حتى قد يتعمدون الاساءة لأنفسهم ٠

الانســان فى نشأته كالغصــن الرطب ، فهو مســتقيم لدن بطبعه ، ولكنها أهواء التربية تميل به الى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقى على أمياله ما دام حيا ، بل تبقى روحه الى أبد الآبدين فى جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بايفاء حق وظيفة الحياة وما أشــبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولذت له الأحلام وبالمجرم الجانى اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وايلام ٠

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتبـاس فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين ٠ وهذه الملكة بعد حصولها ان كانت شرا تظافرت مع النفس والشـيطان فرسخت ، وان كانت خيرا تبقى مقلقلة كالسفينة فى بحر الأهواء لا يرســو بها الا فرعها الدينى أو الوازع السـياسى مـع المثابرة على العمل بمقتضاها ٠ والاستبداد ريح صرصر فيه أعصــار يجعل الانسان كل ساعة فى شأن ٠ وهو مفسـد للدين فى أهم قسميه أى الأخلاق ٠ وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه فى الأكثر ٠ ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد فى تطهير النفوس شـيئا فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعا لفقدها

فى النفوس التى ألفت أن تتلجأ وتتلوى بين يدى سطوة الاستبداد فى زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ، ولهذا لا يستغرب فى الأسير الأليف تلك الحال أن يستعملها أيضا مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه ·

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين وهى وظيفـة الأم وحدها ، ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة وهى وظيفة الأبوين والعائلة معا · ثم تضاف اليها تربية العقـل الى البلوغ وهى وظيفة المعلمين والمدارس · ثم تأتى تربية القـدوة بالأقربين الى الزواج وهى وظيفة الصدفة · ثم تأتى تربيـة المقارنة وهى وظيفة الزوجين الى الموت أو الفراق ·

ولا بد أن تصحب التربية من بعـد البلوغ تربيـة الظروف المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية وتربيـة القـانون أو السـير السياسى وتربية الانسان نفسه ·

***

الحكومات المنتظمة هى تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون فى ظهور الآباء وذلك بأن تسـن قوانين النـكاح ثم تعتنى بوجود القابلات الملقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام واللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعـليم من الابتـدائى الجبرى الى أعـلى المراتب ، ثم يسهل الاجتماعات وتمهد المراسـح وتحمى المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المنكرات وتضـع القوانين المحافظة على الآداب والحـقوق ، وتسـهر على حفـظ العـادات القومية وانماء الاحسـاسات الملية ، وتقوى الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العـاجزين عن الكسـب من الموت جوعا الى أن تقـوم باحتفالات جنائز ذوى الفضـل على الأمـة ، وهكذا الأمـة

تحرص على أن يعيش أبنها راضيا بنصيبه من حياته لا يفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه بل يموت مطمئنا راضيا مرضيا آخر دعائه فلتحى الأمة فلتحى الأمة ٠

أما المعيشة البشرية فى الادارات المستبدة فهى غنية عن التربية ، لأنها محض نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية فى الغابات والأحراش يسطو عليها الحرق والغرق وتحطمها العواصف والأيدى القواصف ويتصرف فى فسائلها وفروعها الفأس الأعمى فتعيش ما شاءت رحمة الحطابين أو تعيش ، والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم تثمر أو تعقم ٠

يعيش الانسان فى ظل العدالة والحرية نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله ، أن طعم تلذذ وان تلهى تروح وتريض ، لأنه هكذا رأى أبويه وأقرباءه ، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم يراهم رجالا ونساء أغنياء وفقراء ملوكا وصعاليك كلهم دائبين على الأعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار ارثا عن أبيه وجده ٠ نعم يعيش العامل الناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة ، انما ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر ٠ فيكون سعيدا بآماله ان لم يساعده السعد فى أعماله وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه وذويه بمجرد ايفائه وظيفة الحياة أى العمل ٠ ويكون فرحا فخورا ، نجح أو لم ينجح ، لأنه برىء من عار العجز والبطالة ٠٠

أما أسير الاستبداد ، فيعيش خاملا خامدا ، ضائع القصد حائرا لا يدرى كيف يميت ساعاته وأوقاته ، ويدرج أيامه وأعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب ٠٠ ويخطىء من يظن أن أكثر الاسراء لا سيما الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر مستدلا بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته والحقيقة فى ذلك انهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها ، فيرى

أحدهم نفسه منقبضا عن العمل ، لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة ، وربما ظن السلب حقا طبيعيا للاقوياء ، فيتمنى أن لو كان منهم • ثم يعمل تارة ، ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ولا يدرى أيضا ما السبب ، فيغضب على ما يسميه سعدا أو حظا أو طالعا أو قدرا •

الأسير المعذب المنتسب الى دين يسلى نفسه بالسعادة الأخروية فيعدها بجنان ذات أفنان ونعيم مقيم أعده له الرحمن • ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ، وأنه ربما كان خاسر الصفقتين • ولبسطاء الاسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهى نحو قولهم • الدنيا سجن المؤمن • المؤمن مصاب • اذا أحب الله عبدا ابتلاه • هذا شأن آخر الزمان • حسب المرء لقيمات يقمن صلبه ويتناسون حديث « ان الله يكره العبد البطال » والحديث المفيد معنى « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها » ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى ما بعد استكمال الأرض زخرفها وزينتها • وأين ذلك بعد •

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك اسم القاتل الذى يحول الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء ، فيرفع المسئولية عن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر ، بل على عاتق الأسراء المساكين أنفسهم • وأعنى بهذا السم سوء فهم العوام وبله الخواص لما ورد فى التوراة من نحو « يد الله على قلب الملك » ولما ورد فى الانجيل من نحو « اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله » و « والحاكم لا يتقلد السيف جزافا انه مقام للانتقام من أهل الشر » ولما ورد فى الرسائل من نحو « فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله » وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم « السلطان ظل الله فى الأرض » و « الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه » و « الملوك ملهمون »

هذا وكل ما ورد فى هذا المعنى إن صح ، فهو مقيد للعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التى فيها فصل الخطاب ، وهى « ألا لعنة الله على الظالمين » وآية « ولا عدوان الا على الظالمين » ..

التربية علم وعمل . وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها حتى لا يرى الباحث عندهم علما فى التربية مدفونا فى الكتب فضلا عن الأذهان . أما العمل فلا يتصور بلا سبق عزم وهو بلا سبق يقين وهو بلا سبق علم . وعندى أن هذا التسلسل هو المراد فى حديث « انما الأعمال بالنيات » ثم ما أبعد الناس المغصوبة أرادتهم المغلولة أيديهم عن توجيه الفكر الى مقصد مفيد أو توجيه الجسم الى عمل نافع .

نعم ما أبعد هؤلاء عن التربية وهى قصر النظر على المحاسن والعبر وقصر السمع على الفوائد والحكم وتعويد اللسان على قول الخير وتعويد اليد على الاتقان وتكبير النفس على السفاسف وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ورعاية الترتيب فى الشئون ورعاية الاقتصاد فى الوقت والمال . والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف لحفظ الحقوق ولحماية الدين لحماية الناموس ولحب الوطن لحب العائلة ولاعانة العلم لاعانة الضعف ولاحتقار الظالمين لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما ينبت فى رياض التربيتين العائلية والقومية .

الاستبداد يضطر الناس الى اباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس واماتة النفس الى آخره . وينتج من ذلك أنه يربى الناس على هذه الخصال بناء عليه يرى الآباء أن تعبهم فى تربية الأبناء التربية الأولى لابد أن يذهب عبثا تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدى . ثم أن عبيد السلطة التى لا حدود لها غير مالكين أنفسهم ولا هم

آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم بل هم يربون أنعاما للمستبدين وأعوانا لهم عليهم · وفى الحقيقة أن الأولاد فى عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق · فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق والاعتناء بالتربية حمق مضاعف · وقد قال شاعر ·

ان دام هـذا ولم تحدث له غير
لم يبك ميت ولم يفـرح بمولود

وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب ، انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وانهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التى يحرمها أيضا الأغنياء الجهلاء عامة كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز مقام فى القلوب ولذة نفوذ الرأى الصائب الى غير هذه الملذات الروحية · وأما ملذاتهم فهى مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات التى تيسرت والا فمزابل للنباتات ومنحصرة فى استفراغهم الشهوة ، كأن أجسامهم خلقت دملا على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه · وهذا الشره البهيمى الناشىء عن فقد الملذات العالية المذكورة هو ما يعمى الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد مع أن العرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد ، بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم خصوصا فى الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها · ولهذا الضعف فى لضقة الأولاد بأزواج أمهاتهم تأثير مهم فى اضعاف الغيرة على تحمل مشاق التربية تلك الغيرة التى لاجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح ·

للسعة والفقر أيضا دخل كبير فى تسهيل التربية وأين الاسراء من السعة كما أن لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية فى التربية ومعيشة الاسراء اغنياء كانوا أو معدمين كلها خلل

فى خلل وضيق فى ضيق • فما أبعد الاسراء اذن عن التربية • ثم ليت شعرى لماذا يتحمل الأباء الاسراء مشاق التربية وهم أن توروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية احساسهم فيزيدونهم شقاء ويزيدونهم بلاء ولهذا لا غرو أن يختار الاسراء الـذين فيهم بقية من الادراك ترك أولادهم هملا تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء •

واذا افتـكرنا كيف ينشـأ الأسير فى البيت الفقير وكيف يتربى • نجد أنه يلقح به وفى الغـالب أبواه متناكدان متشاكسان ثم اذا تحرك جنينا حرك شراسة أمه فشتمته أو ازدادت آلام حياتها فضربته • فاذا مانما ضيقت عليه مقره لالفتها الانحاء خمولا أو التضرر ضغارا أو التقلص لضيق الفراش • ومتى ولدته ضغطت عليـه بالقماط اقتصادا أو جهلا فاذا بكى تألما سدت فمه بثديها أو قطعت نفســه بدوار السرير أو سـقته مخـــدرا •• (★) فاذا مافطـم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه • فأن كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضـــة اللعب لضيق البيت فان ســـأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه • فاذا قويت رجلاه يدفع به الى خارج الباب الى مدرسة الألفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم والسباب • فان عاش ونشأ وضع فى مكتب أو عند ذى صنعة ويكون اكبر القصد ربطه عن السراح والمراح فاذا بلغ الشباب ربطه أولياء على وتد الزواج كى لا يبرح يقاسمهم شـقاء الحياة ويجنى على غيره كمـا جنى عليـه ابواه • ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمه ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسـانه وعمـله وامله وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة فى ضيق وضغط يهرول ما بين وداع سقم واستقبال سـقم الى أن يستقبله الموت مضيعا دنياه مع آخرته فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه •

(★) غير واضحة فى الأصل •

ولا يظن الطالع أن حالة الأغنياء الاسراء هى خير من هذا بكثير انهم اذا نغصتهم بعض المنغصات تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة تظاهرا أن صح قليله فكثيره الكاذب حمل ثقيل على عواتقهم ٠

حياة الأسير تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام فهى حياة لا روح فيها ٠ حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم لا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية ٠ ولولا أن ليس فى الكون شىء غير تابع للنظام حتى فلتات الطبيعة والصدف التى هى مسببات لأسباب نادرة ٠ لحكمنا بأن معيشة الاسراء هى محض فوضى لا شبه فوضى ٠ على أن التدقيق العميق يفيدنا بأن للاسراء قوانين غريبة فى مقاومة الفناء لا يمكن ضبطها انما الاسير يرضعها مع لبن أمه ويتربى عليها ويبدع فيها بسائق الحاجة ويكون الحاذق فيها علما الماهر فى تطبيقها عملا هو الموافق فى ميدان تنازع البقاء والعاجز عنها يتعجله الزوال لاسيما اذا جاءه العجز من جهة زلاقة اللسان او كبر النفس أو قوة الاحساس أو جسارة الجنان فانه الهالك لا محالة ٠

قوانين حياة الأسير هى مقتضيات الشئون المحيطة به التى تضطره لأن يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها ٠ وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر٠ وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاولة واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع واستعمال سياسة الشد والارخاء والكسب مع شكاية الحاجة وحفظ المال بالاخفاء والتعامى عن زلات المستبد والتصامم عن سماع ما يحكى عليه والتظاهر بفقد الحس ٠ وستر العلم بالتجاهل والعقل بالتباله ٠ وعزو كل خير الى المستبد وان كان نحو المطر فالى يمنه ٠ واسناد الشرور الى الاستحقاق ٠ والمطالبة بالحقوق بصفة

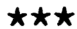
استعطاف الى غير ذلك من قانون الاســارى الذى رؤوس مسائله تمل القارىء فضلا عن تفصيلاتها ٠ هذا واخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه اثر نعمة الله فى المال او الجسم فتصيبه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة اصابة العين) أو أن يظهر له شأن فى علم او جاه أو نعمة مهمة فيسعى به حاسدوه الى المستبد (وهذا أصل شر الحسد الذى يتعوذ منه) وقد يتحيل الأسير على حفظ ماله الذى لا يمكنه اخفاءه كالزوجة الجميلة أو الدابة الثمينة او الدار الكبيرة فيحميها باسناد الشؤم « وهذا أصل التشاؤم بالاقدام والنواصى والاعتاب ٠

وقد اتضــح مما تقدم أن التربية الصحيحة غير مقصـــودة ولا مقدرة فى ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من شر الظالمين وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس ٠ وقد أجمع علماء السياسة والأخلاق والتربية على أن الاقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب وعلى هذه بنوا قولهم أن المدارس تقلل الجنايات لا السجون ووجدوا أن القصــاص والمعاقبة قلمـا يفيدان فى زجر النفس كما قال الحكيم العربى ٠

لا ترجع الأنفس عن غيها　　　ما لم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيدا فى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) يلاحظ أن معنى القصاص لغة هو التســاوى ويدقق النظر فى القرآن الكريم وســائر الكتب الســماوية ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام ويرى أن الاعتناء فى طريق الهداية منصرف فيها الى الاقناع ثم الى الاطمـــاع عاجـلا او آجلا ثم الى الترهيب الآجل غالبا ومـــع ترك أبواب تدلى الى النجاة ٠

ثم ان التربية هى ضالة الأمم وفقدها هو المصيبة العظمى فى الشرق هى التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ثم على حسن التفاهم والاقناع ثم على التمرين والتعويد ثم على حسن القدوه والمثال ثم على المواظبة والتمادى · فاذا كان لا مطمع فى التربية العامة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا أن يسعوا أولا وراء ازالة المانع الضاغط على العقول · ثم يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالى البطون والله الموفق ·



الاستبداد والترقى

الحركة سنة عامة فى الخليفة دائبة بين شخوص وهبوط ، فالترقى هو الحركة الحيوية أى حركة الشخوص ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت أو الانحلال أو الاستحالة او الانقلاب وهذه السنة كما هى عاملة فى المادة وأعراضها عاملة أيضا فى الكيفيات ومركباتها والقول الشارح لذلك آية (ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) وحديث (ما تم أمر الا وبدا نقصه) وقولهم التاريخ يعيد نفسه · وحكمهم بأن الحياة والموت حقان طبيعيان ·

وهذه الحركة لا تقتضى السير الى النهاية شخوصا أو هبوطا بل هى أشبه بميزان الحرارة كل ساعة فى شان والعبرة فى الحكم للوجهة الغالبة · فاذا رأينا فى امة آثار حركة الترقى هى الغالبة على أفرادها حكمنا لها بالحياة · ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت وذلك لأن الأمة هى مجموع افراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين كما أن البناء مجموع انقاض · فاذا ترقى

أو انحط فرد واحد من أمة أثر ذلك فى مجموع تلك الأمة كما اذا وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتها وأمالتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالمشاعر ٠

الترقى الحيوى الذى يسعى وراءه الانسان بفطرته هو أولا الترقى فى الجسم صحة وتلذذا ثم الترقى فى التركيب بالعائلة والعشيرة ٠ ثم الترقى فى القوة بالعلم والمال ٠ ثم الترقى فى الملكات بالخصال والمفاخر ٠

وهناك نوع أخر بالترقى يتعلق بالروح وهو أن الانسان يحمل نفسا ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة أخرى تترقى اليها على سلم الرحمة والحسنات ٠ فأهل الأديان يؤمنون بالبعث أو التناسخ فيرجون مكافأة ويخافون مجازاة ٠ ومن هم من قبيل الطبيعيين يهتمون بالحياة التاريخية بحسن الذكر أو قبحه ٠

وهذه الترقيات على أنواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته وهذا المانع أما هو القدر المحتوم المسمى عند البعض بالعجز الطبيعى أو هو الاستبداد المشؤم على أن القدر قد يصدم سير الترقى لمحة ثم يطلقه فيكر راقيا ٠ وأما الاستبداد فانه يقلب السير مع الترقى الى الانحطاط ٠ من التقدم الى التأخر من النماء الى الفناء ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها دهرا طويلا أفعاله التى تقدم وصف بعضها فى الأبحاث السابقة أفعاله التى تبلغ بالأمة حطة العجموات فلا يعود يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط بل تكون حياتها هذه الدنيئة أيضا مباحة للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية ٠

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى الى طلب التسفل بحيث لو دفعت الى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور واذا ألزمت بالحرية تشقى وربما

تفنى كالبهائم الأهلية اذا أطلق سراحها · وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها ·

وقد توصف حركة الترقى والانحطاط فى الشئون الحيوية للانسان بأنها من نوع الحركة الدورية التى تحصل بالاندفاع والانقباض وذلك أن الانسان يولد وهو أعجز حراكا وادراكا من كل حيوان · ثم يأخذ فى السير تدفعه (الرغائب) النفسية والعقلية وتقبضه (الموانع) الطبيعية والمزاحمة · وهذا سر أن الانسان ينتابه الخير والشر وهو ما ورد فى القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر · وهو معنى ما ورد فى الأثر من أن الخير مربوط بذيل الشر والشر مربوط بذيل الخير · وهو المراد من أقوال الحكماء نحو · على قدر النعمة تكون النقمة على قدر الهمم تأتى العزائم · بين السعادة والشقاء حرب سجال · العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره ·

اذا تقرر هذا فليعلم ايضا أن سبيل الانسان هو الى الرقى مادام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية فى الكهربائية · وسبيله القهقرى أن غلبته الطبيعية أو المزاحمة · ثم أن الاندفاع أن غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة · وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ · أما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل · والقوى منه مهلك مسكن للحركة · والاستبداد المشؤوم الذى نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن والمبتلون به هم المساكين ·

أسراء الاستبداد ولا سيما الفقراء منهم كلهم مساكين لا حراك فيهم فيعيشون منحطين فى الادراك فى الاحساس منحطين فى الأخلاق · وما أظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الارشاد

وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة • وما أليق باللائمين أن يكونوا مشفقين فيسعوا فى رفع الصخرة ولو حتا بالأظافر ذرة بعد ذرة •

قد أجمع الحكماء على أن أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمم • الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هى وظيفتهم بإزاء الانسانية أن يسعوا فى رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها فى النمو فتمزق غيوم الأوهام التى تمطر المخاوف •

وعلى ذكر اللوم الارشادى لاح لى أن أصور الرقى والانحطاط فى النفس وكيف ينبغى للانسان العاقل أن يعانى ايقاظ قومه وكيف يرشدهم الى أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم بنحو الخطابات الآتية :

ياقوم ينازعنى والله الشعور هل موقفى فى جمع حى أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة يا قوم لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين بل أنتم بين بين فى برزخ يسمى التنبيت ويصح تشبيهه بالنوم •

« يا قوم هداكم الله ما هذا الشقاء المديد والناس فى نعيم مقيم وعز كريم أفلا تنظرون وما هذا التأخير وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل حتى صار ما بعد ورائكم وراء أفلا تتبعون • وما هذا الانخفاض والناس فى أوج الرفعة أفلا تغارون » •

« يا قوم وقاكم الله من الشر أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل • وبداء الحرص على كل عتيق • فلماذا تقلدون أجدادكم فى الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم فى محامدهم • أين الدين أين

التربية أين الاحساس أين الغيرة أين الجسارة أين الثبات أين الرابطة أين المنعة أين الشهامة أين النخوة أين الفضيلة أين المواساة هل تسمعون أم أنتم نائمون » .

« ياقوم عافاكم الله الى متى هذا النوم والى متى هذا التقلب على فراش البؤس ووســادة اليأس . انتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام لكم ابصار ولكنكم لا تنظرون و (انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) لكم سمع وشم وذوق ولمس ولكنكم لا تشعرون بها ما هي اللذائذ حقـا وما هى الآلام . ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الأوهام والأحلام ولكم نفوس ولكن لا تعرفون لها قدرا ومقاما » .

« يا قوم قاتل الله الغباوة فانها تملأ القلوب رعبا من لا شيء وخوفا من كل شيء وتفعم الرؤوس تشويشا وسخافة اليست هى الغباوة جعلتكم كانكم قد مسكم الشيطان فتخـافون من ظلمـكم وترهبون من قوتكم وتجيشون منكم عليكم جيوشـا ليقتل بعضكم بعضا تترامون على الموت خوف الموت وتحسـبون طول العمـر فكركم فى الدماغ ونطقكم فى اللسان واحساسكم فى الوجدان خوفا من أن يحبس الظالمون أرجلكم أياما » .

« ياقوم أعيذكم بالله من فساد الرأى وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون أثر للرشد فى أن يوكل الانسان عنـه وكيلا ويطـلق له التصرف فى ماله واهله والتحكم فى حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره مع تسـليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف واتلاف أم ترون أن هذا النوع من الجنة به يظلم الانسـان نفسه . بلى (ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون) » .

« ياقـوم شفاكم الله قد ينفع اليوم الاتذار واللوم واما غـدا اذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء فالى متى هـذا

التخاذع والى متى هذا التوانى ؟ والى متى هذا التواكل هل طاب لكم هذا الذل وتودون لو تصحبونه فى القبور ٠ أم عاهدتم أنفسكم أن تصلوا غفلة الحياة بالممات فلا تفيقوا من السبات قبل صباح يوم النشور » ٠

« يا قوم رحمكم الله ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة ٠ ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب ٠ هل لكم فى هذا الصبر فخر أو لكم عليه أجر كلا والله ساء ما تتوهمون ليس لكم الا القهر فى الحيـاة وقبيح الذكر بعد الممات لأنكم ما افدتم ولا استفدتم من الوجود بل أتلفتم ما ورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف ٠

« يا قـوم حماكم الله قـد جاءكم المستمتعون من كل حـدب ينسلون فان وجدوكم أيقاظا عامـلوكم كمـا يتعـامل الجيـران ويتجامل الأقران وان وجدوكم رقودا لا تشعرون سلبوا أموالكم وزاحموكم على أرضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالأنعام ٠ وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون وتجدون فى وجوهكم الأبواب موصدة والمسالك مسدودة لا نجاة ولا مخرج » ٠

« يا قـوم هون الله مصابكم تشكون من الجهـل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون فى اصلاحهم ٠ تشكون فقد الرابطة ولكم رابط من وجوه لا تفكرون فى أحـكامها ٠ تشـكون الفقر ولا سبب له غير الكسل هل ترجون الصلاح وأنتم يخادع بعضكم بعضا ولا تخدعون الا أنفسكم ترضون بأدنى المعيشة عجزا تسمونه قناعة وتهملون شئونكم تهاونا تسمونه توكلا تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القـدر الا والله ما هذا شأن البشر ٠

« يا قوم سامحكم الله . لا تظلموا الأقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار ألم يخلقكم أحرارا لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم ألا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء لو شاء كبيركم أن يحمل صغيركم كرة الأرض لحنى له ظهره ولو شاء أن يركبه لطأطأ له رأسه ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله وماذا تؤملون من تقبيل الأنيال والاعتاب . أليس منشأ هذا الصغار والهوان هو ضعف ثقتكم بأنفسكم كأنكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة وحسب الحياة لقيمات من نبات تقمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق . لأ ضعف الحيوان . فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذى لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء أو موضع الشيخ الفانى الذى لا ينال حاجته الا بالتملق والدعاء » .

« يا قوم رفع الله عنكم المكروه ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم اكفاء فى البنية أكفاء فى القوة أكفاء فى الطبيعة أكفاء فى الحاجات لا يفضل بعضكم بعضا الا بالفضيلة لا ربوبية بينكم ولا عبودية والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو درى الصغير بوهمه والعاجز بوهمه . ما فى نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضى الأمر الذى فيه تختلفون وفيه تشقون » .

« يا قوم جعلكم الله من المهتدين . كان أجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الأخوان . وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستويين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء البهائم تود لو تنتصب قامتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم . النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الأرض لتكونوا على

ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا فى جوفها · فان كانت هذه بغيتكم فأصبروا قليلا لتنالوا فيها طويلا » ·

« يا قوم ألهمكم الله الرشد متى تستقيم قامتكم وترتفع من الأرض الى السماء أنظاركم وتميل الى التعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته يملك ارادته واختياره ويثق بربه ونفسه لا يتكل على أحد من خلق الله اتكال الغاصب على مال الغافل أو الكل على سعى العامل بل يعتمد على المبادلة والتعاوض وحينئذ يظهر منكم حكم التضامن والتقاضى فتصيرون بنعمة الله اخوانا » ·

« يا قوم أبعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ان كانت المظالم غلت أيديكم وضيقت أنفاسكم حتى صغرت نفوسكم وهانت عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوى عندكم الجد والجهد وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون ، فهلا تخبرونى لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى فى الموت · أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاءون لا كما يشاء الظالمون هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى فى الموت · كلا والله : ان أنا أحببت الموت أموت كما أحب لئيما أو كريما حتفا أو شهيدا فان كان الموت ولابد فلماذا الجبانة وان أردت الموت فليكن اليوم قبل الغد وليكن بيدى لا بيد عمرو · أليس ·

وطعم الموت فى شىء حقير كطعم الموت فى شىء عظيم

« يا قوم أناشدكم الله ألا أقول حقا اذا قلت انكم لا تحبون الموت بل تحرصون على الحياة ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت الى الموت ولو علمتم السبيل لعلمتم أن الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة · وان الخوف من التعب تعب والأقدام على التعب راحة وان الحرية هى شجرة الخلد وسقياها قطرات

من الدم المسفوح · والاسارة هى شجرة الزقوم وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق » ·

« يا قوم وأعنى منكم المسلمين · قال نبيكم الكريم عليه الصلاة والتسليم (لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) وقال (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) » ·

وأنتم تعلمون اجماع أئمة مذاهبكم كلها على أن أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذى فشا فيكم ثم قتل النفس ثم وثم وقد أوضح العلماء أن تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضا فى الله · بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر أو يجامله ولو بالسلام يكون قد خسر أضعف الايمان وما بعد الاضعف الا العدم أى فقد الايمان والعياذ بالله ·

ولا أظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغنى شيئا مع فقد الايمان · أنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياما بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الأموال والأوقات ·

بناء عليه فالدين يكلفكم أن كنتم مسلمين والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ولا أقل فى هذا الباب من أبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين وأظنكم اذا تأملتم قليلا ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم يكفى لانقاذكم مما تشكون · والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه · ولو أهمله كافة المسلمين ولو أن أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم الى ما أنتم عليه من الهوان ·

« يا قوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين

أدعوكم الى تناسى الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والاجداد فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطنى دون الدينى والوفاق الجنسى دون المذهبى والارتباط السياسى دون الادارى فما بالنا نحن لا نفتكر فى أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها ؛ بقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الاعجام والأجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهى (فلتحى الأمة فليحى الوطن فلنحى طلقاء أعزاء) ،

ادعوكم واخص منكم النجباء للتبصر فيما اليه المصير أليس مطلق العربى أخف استحقارا لأخيه من الغربى هذا الغربى قد أصبح ماديا لا دين له غير الكسب فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الدينى الا مخادعة وكذبا ، هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين فى الشرق الا كما يغرد الصياد وراء الأشباك الغربى أرقى من الشرقى علما وثروة ومنعة فله على الشرقيين اذا واطنهم السيادة الطبيعية ، أما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون ، الغربى يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر فمتى رأى فيكم استعدادا واندفاعا لمجاراته أو سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطا كبيرا كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتاتار ، وكما هو شأن دول الاستعمار ، الغربى مهما مكث فى الشرق لا يخرج عن أنه تاجر مستمتع فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها فى بلده التى لا يفتأ يفتخر برياضها ويحن الى أرباضها ،

وقد مضى على الهولانديين فى الهند وجزائرها وعلى الروس فى قازان مثل ما اقمنا فى الأندلس ولكن ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناهما ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ . نرى الانكليزى فى بلادنا يفضل قديد بلاده وسمك بحاره على طرى لحمنا وسمكنا فهلا والحالة هذه تبصرون يا أولى الألباب .

وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ماذا اقعدك عن مسراك أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والافنان المنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار ومهبط الحكمة والأديان وهواؤك ذاك النسيم العليل لا العواصف والضباب وماؤك ذاك العذب الغدق لا الكدر ولا الاجاج .

رعاك الله يا شرق . ماذا أصابك فأخل نظامك والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ألم تزل مناطقك هى المعتدلة وبنوك هم الفائقون فطرة وعددا أليس نظام الله فيك على عهده ورابطة الأديان فى بنيك محكمة قويمة مؤسسة على عبادة الصانع الوازع أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة اشرقت فيك شمسها أيدت بها عز النفس واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس .

رعاك الله يا شرق ماذا عراك وسكن منك الحراك الم تزل أرضك واسعة خصبة . ومعادنك وافية غنية وحيوانك رابيا متناسلا وعمرانك قائما متواصلا . وبنوك على ماربيتهم اقرب للخير من الشر أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفا فى القلب وعندهم الحياء المسمى بالجبانة وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف وعندهم القناعة المسماة بالعجز وعندهم العفة المسماة بالبلاهة . وعندهم المجاملة المسماة بالذل . نعم ما هم بالسالمين

من الظلم ولكن فيما بينهم ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ولا من الاضرار ولكن مع الخوف من الله ٠

رعاك الله ياغرب ٠ وحياك وبياك قد عرفت لأخيك سابق هذا الشقاء لبنيك ويستلزم ذلهم لبنى أخيك فلماذا قد أصبحت اذا انقطع عنك أخيك بمصنوعاته يبقى أبناؤك عراة حفاة فى ظلام بل يمنيهم الحديد بالرجوع الى العصر النحاسى بل الحجرى الموصوف بعصر التعفين ٠

رعاك الله يا شرق ٠ بل رعى الله أخاك الغرب العائل بنفسه والعائل فيك وقاتل الله الاستبداد بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقى فى الحياة المنحط بالأمم الى أسفل الدركات الا بعدا للظالمين ٠٠

رعاك الله يا غرب ٠ وحياك وبياك قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت وأحسنت الوصاية وهديت وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لاعانة انجاب أخيك على هدم ذاك السور سور الشؤم والشرور ليخرجوا باخوانهم الى أرض الحياة أرض الأنبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافاة ٠

ياغرب لا يحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته وفقد الدين يهددك بالخراب القريب فماذا أعددت للفوضيين اذ صاروا جيشا جرارا هل تعد لهم المواد المتفرقعة وقد جاوزت أنواعها الألف أم تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان ٠

يا قوم وأريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد اعيذكم من الخزى والخذلان بتفرقة الأديان واعيذكم من

الجهل جهل أن الدينونة لله وهو سبحانه ولى السرائر والضمائر ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ·

أناشدكم ياناشئة الأوطان أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم وأسالكم عفوهم من العتاب والملام لأنهم مرضى مبتلون مثقلون بالقيود ملجمون بالحديد يقضون حياة خير ما فيها أنهم آباؤكم ·

قد علمتم يا نجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية للتءمل والتدبر فاعتبروا بنا واسالوا الله العافية نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا · ألفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق ألفنا الانقياد ولو الى المهالك · ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا والتذليل لطفا والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعا والرضا بالظلم طاعة ودعوى الاستحقاق غرورا والبحث عن العموميات فضولا ومد النظر الى الغد أملا طويلا والاقدام تهورا والحمية حماقة والشهامة شراسة وحرية القول وقاحة وحرية الفكر كفرا وحب الوطن جنونا ·

أما أنتم حماكم الله من السوء فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين دون أوهام المتفننين فتعرفوا قدر نفوسكم فى هذه الحياة فتكرمونها وتعرفوا قدر أرواحكم وأنها خالدة تثاب وتجزى وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم ونرجو لكم أن تبنوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم الشيم لا على عظام نخرة وأن تعلموا أنكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا فى شئونه لا يحكمه غير الحق وشريكا أمينا لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء وولدا بارا لوطنه

لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ومحبا للانسانية يعمل على أن خير الناس انفعهم للناس · يعلم أن الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط · والحياة هي الأمل ووباء الأمل التريد ويفقه أن القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعي والعمل ويوقن أن كل اثر على ظهر الأرض من عمل اخوانه البشر فلا يتخيل في نفسه عجزا ولا يتوقع الا خيرا وخير الخير أن يعيش الانسان حرا او يموت ·

يا قوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد · هذا خطابي اليكم فيما هو الترقي وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشراي والسلام عليكم والا فيا ضياع الانفاس وعلى الرفاة السلام ·

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالأمة الى غاية ان تموت ويموت هو معها كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه اما بلوغ الترقي الأمم الى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالانسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمة تصلح مثالا له حيث لم توجد أمة حكمت نفسها برأيها العام حكما لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام او بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني أو الجنسي بين الناس فكان الحكمة الالهية لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الاخوة العمومية بالتحابب بين الأفراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات · نعم وجد للترقي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية الثانية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين وكأزمنة المنقطعين في عهد الملوك المنظمين لا الفاتحين مثل أنو شروان وعبد الملك الأموي ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير · وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لأحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان واني اقتصر على وصف منتهى

الترقى الذى وصلت اليه تلك الأمم وصفا اجماليا واترك للمطالع أن يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الأمم ٠

وربما يستريب فى ذلك المطالع المولود فى أرض الاستبداد الذى لم يدرس أحوال الأمم فى الوجود ولا عتب عليه فانه كالمولود أعمى لا يدرك للمناظر البهية معنى ٠

وقد بلغ الترقى فى الاستقلال الشخصى فى ظلال الحكومات العادلة لأن يعيش الانسان المعيشة التى تشبه فى بعض الوجوه ما وعدته الأديان لأهل السعادة فى الجنان حتى أن كل فرد يعيش كأنه خالد بقومه ووطنه وكأنه آمين على كل مطلب ٠

١ ـ آمين على السلامة فى جسمه وحياته بحراسة الحكومة التى لا تغفل عن محافظته بكل قوتها فى حضره وسفره ٠

٢ ـ آمين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة فى الشئون العامة المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يخال له أن تسهيل الطرقات والتزيينات البلدية والمنتزهات والمنتديات والمدارس والمجامع ونحو ذلك قد وجدت كلها لأجله خاصة ٠

٣ ـ آمين على الحرية كأنه خلق وحده على سطح هذه الأرض فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل ٠

٤ ـ آمين على النفوذ كأنه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس فى تنفيذ مقاصده النافعة فى الأمة التى هو منها ٠

٥ ـ آمين على المزية كأنه فى أمة يساوى جميع افرادها منزلة وشرفا فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحد عليه الا بمزية سلطان الفضيلة فقط ٠

٦ ـ آمين على العدل كأنه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفا وهو المثمن فلا يجد بخسا وهو المطمئن على أنه اذا استحق أن يكون ملكا صار ملكا واذا جنى جناية نال جزاؤه لا محالة ·

٧ ـ آمين على المال والملك كأن ما أحرزه بوجهه المشروع قليلا كان أو كثيرا قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه كما أنه تقلع عنه ان نظر الى مال غيره ·

٨ ـ امين على الشرف بضمان القانون بنصرة الأمة ببذل الدم فلا يرى تحقيرا الا لدى وجدانه ولا يعرف طعما لمرارة الذل والهوان والصغار ·

وقد يبلغ الترقى فى التركيب بالعائلة والعشيرة أن يعيش الانسان معتبرا نفسه عضوا حقيقيا من جسم · فالجسم الحى المتمدين هو مجموع الأمة · والانقسام الى عائلات وافراد من قبيل انقسام المدينة الى بيوت والبيوت الى مرافق وكما أنه لابد لكل مرفق من وظيفة يصلح لها والا كان بناؤه عبثا يستحق الهدم كذلك الأفراد فى الأمم لابد أن يعد كل منهم نفسه لوظيفته فى قيام حياة قومه · ولهذا يكون من لا يصلح لوظيفة أو لا يقوم بما يصلح له بل يريد أن يعيش كلا عليهم لا عن عجز طبيعي حقيرا يستحق الموت لا الشفقة لأنه كالدرن فى الجسم أو الزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهى التى ليس فيها ترويض والسكر المعطل عن العمل والمقامرة والربا لأنهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه · وقد فضل الناس الكناس عن الحجام لأن صنعته أنفع للجمهور وهكذا صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر ·

الانسان الحر مالك لنفسه تماما ومملوك لقومه تماما ٠ ومتى يبلغ ترقى التركيب فى أمة لهذه المرتبة بحيث يصير كل فرد مستعدا لأن يفتدى أمته بماله وروحه فعندئذ تصبح الأمة فى غنى عن ماله وروحه ٠

أما الترقى فى العز بالعلم والمال فيتميز على باقى الترقيات تميز الرأس على باقى أعضاء الجسم فكما أن الرأس بأحرازه مركزية العقل ومركزية أكثر الحواس تميز على باقى الأعضاء واستخدامها في حاجاته فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجموعها فى العلم والثروة فيكون لهم سلطان طبيعى على الأفراد او الأمم التى انحط بها الاستداد المشئوم الى حضيض الجهل والفقر ٠

بقى علينا بحث الترقى فى الكمالات بالخصال والأثرة وبحث الترقى الذى يتعلق بالروح أى بما وراء هذه الحياة ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات فهذه أبحاث طويلة الذيل ومتابعها حكميات الكتب السماوية ومدونات الأخلاق وتراجم مشاهير الأمم ٠

واكتفى بالقول فى هذا النوع أنه يبلغ بالانسان مرتبة أن لا يرى لحياته أهمية الا بعد درجات ٠ الأولى منها حياة أمته ثم حريته ثم شرفه ثم عائلته ثم وثم ٠ وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله ٠ قومه البشر ووطنه الأرض كما أنه قد يترفع عن الامارة لما فيها من معنى الكبر وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل فيرى الشرف كل الشرف فى القلم ثم المحراث ثم

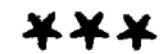
المطـرقة وخلاصـــة القول أن الأمم التى اسـعدها جدها لتبـديد استبدادها نالت من الشرف الحسى والمعنوى ما لا يخطر على فكر أسراء الاستبداد فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الأميرية برمتهـــا مكتفية فى نفقتها بنماء فوائد بنك الحكومة وهذه سويسرة يصادفها كثيرا أن لا يوجد فى سجونها محبوس ٠ وهذه أمريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع ٠ وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا وأمريكا ثمن اختراعاتها وطبع مؤلفاتها ٠

نعم وقد نالت أيضا تلك الأمم حظا من الملــذات الحقيقيـة التى لا تخطر على فكر الاسراء كلذة العلم وتعليمه ولذة المجـد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احــراز الاحترام فى القلوب ولذة نفوذ الرأى الصــائب الى غير ذلك من الملــذات الروحيـة وأما الأسراء والجهلاء فملذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الشارية في جعلها بطونها مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات وعلى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دمــلا على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه ٠

وانفع ما بلغه الترقى فى البشر هو احكامهم أصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سدا متينا فى وجه الأستبداد وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع والشروع هو حبـل الله المتين ٠ وبجعلهم قوة التشريع فى يد الأمة والأمة لا تجتمع على ضلال ٠ وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتـكاد تحاكى فى عدالتها المحكمة الكبرى الالهيه ويجعلهم مأمورى الحكومة

القائمين بالأعمال العمومية لا سبيل لهم على تعدى حدود وظائفهم كأنهم ملائكة لا يعصـون أمرا ويجعلهم الأمة يقظة سـاهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون وهكذا لما اهتدوا لاصلاح شئونهم نجاهم الله من الهلاك ۰ هلاك الاستبداد ۰ لأنه تعالى شأنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ۰

هذا مبلغ الترقى الذى وصلت اليه الأمم منذ عرف التاريخ على أنه لم يقم دليل الى الآن على ترقى البشر فى السعادة الحيوية كما كانوا عليه فى العصور الخالية حتى الحجرية حتى منذ كانوا عراة يسرحون أسرابا والاثار المشهورة لا تدل على أكثر من ترقى العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء وترقيهما هو من سنة الكون التى أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيها ووصف لنا ما سيبلغ اليه ترقى زينتها واقتدار أهلها بقوله عز شأنه (حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلهـا انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصدا كأن لم تغن بالأمس) وهذا يدل على أن الدنيا وبنيها لم يزالا فى مقتبل الترقى لا كما يظن الخاملون الذين كأنهم خلقوا أذى أو سدى ۰



الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا فى هذا الباب مدرسة أعظم من التـاريخ الطبيعى والعمومى ولا برهان أقوى من الاسـتقراء ومن تتبعهما يرى أن الانسان عاش دهرا طويلا فى حالة طبيعية بطونا وأسرابا يسوسه

الشيوخ الأكثر خبرة ويقوده الأقوياء بنيـة · ثم عاش حينـا من الدهر فى حـالة بدوية عشـائر وقبـائل يسـوسه شـيوخ البطون والأفخاذ تحت رئاسـة أمير منفذ لما يقررون لا يداخلهم فى الـرأى غالبا وهم يتبعون نظاما بسيطا اداريا ولهم قواعد قليلة قضـائية رائدها العدالة الوجدانية أو النظام التقليدى ولم يزل نصف الانسان على تلكما الحالتين الى الآن ·

والنصف الثانى من البشر ارادوا التوسـع فى المعيشـة فسجنوا أنفسـهم بجدران القـرى والمـدن فتوسـعوا ولكن فى الشقاء والذل لأن أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطـريق المثـلى فى سياسـة جمعيـاتهم وهـذا هـو سبب تنـوع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمة على شكل مرضى عـام · انمـا هى تقلبـات على سـبيل التجريب وبحسب تغلب أحـزاب الاجتهـاد أو أحـزاب الاسـتبداد ·

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشـكلة فى البشر وهو المعتـرك الأكبر لأفكار البـاحثين والميـدان الذى قل فى البشـر من يجول فيـه على فيـل من الفكر أو جمـل من الجهـل أو فـرس من الفراسة أو على حمـار من الحمق حتى جاء الزمن الأخيـر فجال فيه انسـان الغرب جـولة المغـوار المتطى فى التـدقيق مراكب البخـار فقرر قواعد أساسية فى هـذا الباب تضافر عليها العقـل والتجريب وحصحص فيهـا الحـق اليقين فصـارت تعـد من المقـررات الاجماعية عنـد الأمم المترقيـة : على أن هـذه الأمم لم تزل أيضـا منقسمة الى أحـزاب سياسية يختلفون شـيعا فى وجوه تطبيـق أصـول تلك القـواعد وفروعهـا على أحـوالهم الخصوصية وهـذه القـواعد وان كانت قـد صارت قضـايا بديهية فى الغرب لم تزل مجهولة أو غريبة أو منفـورا منهـا فى الشرق لأنهـا عند الأكثرين منهم لم تطرق سمعهم وعند البعض لم تنـل

التفاتهم وتد قيقهم وعنــد آخــرين لم تحز قبــولا لأنهم ذوو غرض أو مسروقة قلوبهم أو فى قلوبهم مرض ·

وانى أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المبــاحث التى تتعلق بهــا الحياة السياسية · وقبــل ذلك اذكرهم بانه قــد سبق فى تعريف الاستبداد بانه هــو الحــكومة التى لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحــكم كمــا استلفت نظرهم الى انه لا عبرة بيمين من يتولى الســلطة أيا كان ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعــدالة ومقتضيات المصلحة العامة وأمثــال ذلك من القضــايا الكليــة المبهمة التى تدور على الســنة كل بر وفاجر · وما هى فى الحقيقــة الا كلام فارغ · لأن المجــرم لا يعــدم تأويلا ولأن من طبيعة القــوة الاعتساف ولأن القوة لا تقــابل الا بالقوة · ثم فلنرجع للمبــاحث التى أريد طرحها لتدقيق المطالعين وهى :

١ ـ « مبحث ما هى الأمة أى الشــعب » هــل هى ركام مخلوقات نامية أو جمعية عبيد لمالك متغلب · أم هى جمــع بينهــم روابط جنس ولغــة ووطن وحقــوق مشــتركة ·

٢ ـ « مبحث ما هى الحــكومة » هل هى انســان وأعــوانه يتسلطون على الرقاب والدماء والشرف والمــال يفعــلون ما يشاءون أم هى وكالة سياسية تقــام من قبــل الأمة لأجل ادارة شئونها المشتركة العــامة ·

٣ ـ « مبحث ما هى الحقوق العمــومية » هل للحــكومة صــفة المالكية · أم صفة الأمانة والنظــارة على الأملاك العمومية مثل الأراضى والمعادن والأنهــر والسواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات ومثل حقوق المعــاهدات والاســتعمار ومثل حقوق اقامة الحكومة وتأمين العــدالة وتســهيل

الترقى الاجتماعى وايجاد التضامن الافرادى · الى غيـر ذلك مما يحق لكل فرد أن يتمتع به وأن يطمئن عليه ·

٤ ـ « مبحث الحقوق الشخصية » هل الحكومة تملك السيطرة الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء بذلا وحرمانا · أم تكون الحقوق محفوظة للجميـــع على التســاوى والشيوع أو موزعة على الفصـــائل والبلـدان والصــنوف والأديان بنســبة عادلة ·

٥ ـ « مبحث الحقوق الشخصية » هــل الحكومة تملك السيطرة على الأعمــال والأفكار · أم أفراد الأمة أحرار فى الفكر مطلقا وفى الفعل ما لم يخـــالف القانون الاجتماعى لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية ·

٦ ـ « مبحث نوعيــة الحــكومة » هل الأصلح هى الملكيــة المطلقة من كل زمام · أم الملكية المقيدة وما هى القيود · أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو الموقتة · وهــل تنـــال بالوراثة أو العهـــد أو الغلبة وهل يكون ذلك كما تشــاء الصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة وما هى تلك الشرائط وكيف يصير تحقيق وجودها وكيف يراقب استمرارها ·

٧ ـ « مبحث ما هى وظائف الحكومة » هل هى ادارة شئون الأمة حسب الرأى والاجتهاد · أم تكون مقيــدة بقــانون موافق لرغائب الأمة وأن خالف الاصلح · واذا اختلفت الحكومة مع الأمة فى اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة ·

٨ ـ « مبحث حقــوق الحــاكمية » هــل للحــكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ما تشــاء من مراتب العظمة ورواتب المال

وتحابى من تريد بما تشاء من حقوق الأمة وأموالها · أم يكون التصرف فى ذلك كله اعطاء وتحديدا ومنعا منوطا بالأمة ·

٩ - « مبحث طاعة الأمة للحكومة » هل للحكومة تكليف الانقياد المطلق · أم عليها الاعتناء بوسائل التفهم والاقناع ولو اجمالا لتتأتى الطاعة باخلاص ·

١٠ - « مبحث توزيع التكليفات » هل يكون وضع الضرائب مفوضا لرأى الحكومة أم الأمة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال وترتب طرائق جبايته وحفظه ·

١١ - « مبحث اعداد المنعة » هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعدادا للدفاع مفوضا لادارة الحكومة اهمالا أو اقلالا أو اكثارا أو استعمالا على قهر الأمة أم يحرص على أن يكون ذلك برأى الأمة وتحت أمرها بحيث تكون القوة منفذة رغبة الأمة لا رغبة الحكومة ·

١٢ - « مبحث المراقبة على الحكومة » هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل · أم يكون للأمة حق السيطرة عليها لأن الشأن شأنها فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شىء وتوجيه المسئولية على اى كان ·

١٣ - « مبحث حفظ الأمن العام » هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته ام تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيما ومسافرا حتى من بعض طوارىء الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض ·

١٤ - « مبحث حفظ السلطة فى القانون » هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهى على الأفراد برأيها اى بدون الوسائط

القانونية أم تكون السلطة منحصرة فى القانون الا فى ظروف مخصوصة ومؤقتة ·

١٥ ـ « مبحث تأمين العدالة القضائية » هل يكون العدل ما تراه الحكومة · أم يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرق والحق ومن كل ضغط حتى ضغط الرأى العام ·

١٦ ـ « مبحث حفظ الدين والآداب » هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها فى حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر ولا تتدخل الحكومة فى أمر الدين ما لم تنتهك حرمته ·

١٧ ـ « مبحث تعيين الأعمال بقوانين » هل يكون فى الحكومة من الحاكم الأكبر الى البوليس من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته · أم يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة الا فى حالات الخطر الكبير ·

١٨ ـ « مبحث كيف توضع القوانين » هل يكون وضعها منوطا برأى الحاكم الأكبر أو رأى جماعة ينتخبهم لذلك · أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الأمة لأنهم أدرى بحاجاتهم وملائم طبائعهم وصوالحهم ويكون حكمه عاما أو مختلفا على حسب تخالف الأقوام وتغير الظرف والزمان ·

١٩ ـ « مبحث ما هو القانون وقوته » هل القانون هو أحكام يحتج بها القوى على الضعيف · أم هو أحكام تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر مصون من

مؤثرات الأغراض والشفاعة والشفقة محترم عند الكافة مضمون الحماية من قبل كل افراد الأمة ·

٢٠ ـ « مبحث توزيع الأعمال والوظائف » هل يكون ذلك مخصوصا بأقارب الحاكم او عشيرته او مقربيه · أم توزيع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد بحيث يكون رجال الحكومة انموذجا من الأمة أو هم الأمة مصغرة · وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجبارى ·

٢١ ـ « مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم » هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث فى واحد · أم تخصص كل وظيفة من الساسة والدين والتعليم بمن يقوم باتقان ولا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة ·

٢٢ ـ « مبحث الترقى فى العلوم والمعارف » هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كى لا يقوى نفوذ الأمة عليها · أم تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائى عموميا بالتشويق أو الاجبار ثم التوسيع مسهلا · وجعل التعليم والتعلم حرا مطلقا ·

٢٣ ـ « مبحث التوسيع فى الزراعة والصنائع والتجارة » هل يترك ذلك للنشاط المفقود فى الأمة · ام تلزم الحكومة بالاجتهاد فى تسهيل مضاهاة الأمم السائرة لا سيما المزاحمة والمجاورة كيلا تهلك الأمة بالحاجة لغيرها او تضعف بالفقر ·

٢٤ ـ « مبحث السعى فى العمران » هل يترك ذلك لاهمال الحكومة أو انهماكها فيه · ام تحمل على اتباع الاعتدال

المتناسب مع الثروة العمومية بدون التفات للتفاخر بالتزينات البلدية غير المفيدة ماديا ٠

٢٥ ـ « مبحث السعى فى رفع الاستبداد » هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها ٠ أم نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعا لا يترك مجالا لعودته من وظيفة عقلاء الأمة وسراتها ٠

هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج الى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية٠ وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوى الألباب وتنشيطا للنجباء على الخوض فيها بترتيب اتباعا لحكمة اتيان البيوت من أبوابها وأن اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط أعنى مبحث السعى فى رفع الاستبداد فاقول :

١ ـ الأمة التى لا يشعر كلها أو اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ٠

٢ ـ الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدريج ٠

٣ ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد٠

هذه قواعد رفع الاستبداد وهى قواعد تبعد آمال الاسراء وتسر المستبدين لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم ولهذا اذكرهم بما قد أنذرهم به « الفيارى » المشهور فى مثل هذا المقام حيث قال لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ٠ وانى أقول ما من جبار قهار الا ويأخذه الله أخذ عزيز منتقم ثم اقول :

مبنى قاعدة كون الأمة التى لا يشعر اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ٠ ان الأمة التى ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لا تسأل قط عن الحرية وقد تنقم

على المستبد ولكن طلبا للانتقام من شخصه لا طلبا للخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئا انما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع . وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يده إلا بماء الاستبداد فلا تستفيد ايضا شيئا انما تستبدل مرضا مزمنا بمرض حد . وربما تنال الحرية عفوا فكذلك لا تستفيد منها شيئا حيث لا تلبث تلك الحرية أن تنقلب الى استبداد مشوف أشد وطأة كالمريض اذا انتكس .

ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم بالحكمة والتدريج هو أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هى ترقى الأمة فى الادراك والاحساس وهذا لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس كما أن اقناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه لا يتأتى الا فى زمن طويل لأن العوام مهما ترقوا فى الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروى المديد وربما كانوا معذورين لأنهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع .

ثم أن الاستبداد محفوف بأنواع القوات التى منها قوة الارهاب وقوة الجند لا سيما اذا كان الجند غريب الجنس وقوة المال وقوة الألفة على القسوة وقوة رجال الدين وقوة أهل الثروات وقوة الأنصار من الأجانب فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام ومن طبع الفكر العام أنه اذا فار فى سنة يفور فى سنة واذا فار فى يوم يفور فى يوم بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد .

الاستبداد لا ينبغى أن يقاوم بالعنف كى لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا على أن الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر

عندها الفتنة انفجارا طبيعيا فاذا كان فى الأمة عقلاء يتباعدون عنها حتى اذا سكنت ثورتها نوعا قضت وظيفتها فى حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة فى توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة وخير ما تؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة · العوام لا يتهيجون على المستبد غالبا الا عقب أحوال مخصوصة فورية · وهى · أولا · عقب مشهد دموى مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه · ثانيا عقب حــرب يخرج منها المستبد مغلوبا ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة بعض القواد · ثالثا · عقب تظاهر المســتبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام· رابعا · عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى أواسط الناس · خامسا · فى حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد · سادسا · عقب ما يستفز الغضب الفورى كتعرضه لناموس العرض أو حرمة الجنائز فى الشرق وناموس القانون أو الشرف الموروث فى الغرب· سابعا · عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء فى الاستنصار · ثامنا · عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها الى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذا ·

المستبد مهما كان غبيا لا تخفى عليه هذه المزالق ومهما كان غبيا لا يغفل عن اتقائها · كمــا أن هــذه الأمور يعرفهــا أعوانه ووزراؤه فاذا وجد منهم بعضا يريدون له التهلكة يهورونه على الوقوع فى احداها ويلصقونها به بشهادتهم عوضا عن ابعــادها عنه بالتمويه على الناس ولهذا يقــال أن رئيس وزارة المســتبد أو رئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم أقدر الناس على الايقاع به وهو يداريهم تحذرا واذا اراد اسقاط أحدهم يوقعه بغتة ·

ومبنى قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئه ماذا يستبدل به الاستبداد (هو أن معرفة الغاية ولو اجمالا شرط طبيعى للاقدام على كل عمل) لكن المعرفة الاجمالية فى هذا الباب لا تكفى مطلقا • بل لابد من تعيين المطلب تعيينا واضحا موافقا لرأى الكل او لرأى الأكثرية التى هى فوق الثلاثة أرباع عددا أو قوة بأس والا فلا يتم الأمر حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعا يكون الاقدام ناقصا نوعا واذا كانت مجهولة بالكلية عند كل قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط فتكون الغلبة فى جانب المستبد مطلقا • ثم اذا كانت الغاية مبهمة فى الأول فلا بد أن يقع الخلاف فى الأخر فيفسد العمل أيضا وينقلب الى فتن صماء وانقسام مهلك • ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الناس والسعى فى اقناعهم واستحصال رضائهم بها بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم • وهذا سبب عدم نجاح الامام على ومن وليه من أئمة آل البيت رضى الله عنهم ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة بل عن صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والمطبوعات اذ ذاك •

والحاصل أن من الضرورى تقرير شكل الحكومة التى يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد وليس هذا بالأمر الهين الذى تكفيه فكرة ساعات أو فطنة آحاد بل ليس هو بأسهل من الفكرة فى ترتيب المقاومة وهذا الاستعداد الفكرى النظرى لا يكفى أن يكون مقصورا على الخواص بل لابد من تعميمه ويبتدىء ذلك بعد احساس الأمة بالام الاستبداد ولا شك أن الفرد المتحمس فى شأن عمومى مثل محاربة الاستبداد يعد العشرات والمئات وربما الألوف على حسب قوة براهينه • ثم لما يستفيض بين الأمة البحث فى القواعد الأساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك افكار

كل طبقات الأمة ويبقى تحت مخض العقول سـنين وأعواما حتى ينضج تماما وحتى مبتدى ظهور التلهف الحقيقى على نوال الحرية فى الطبقات العليا والتمنى فى الطبقات السـفلى وحتى يشـعر المستبد بالخطر ويأخذ التحذر الشديد والتنـكيل وحتى تحصـل أو تستحصل الفرصة المناسبة · فحينئذ تكون الأمة قد اسـتعدت طبيعيا لقبول أصول أن تحكم نفسها بنفسها وحينئذ لها الخيار أن شاءت تكلف المستبد ذاته لاستبدال أصول الاسـتبداد بالأصـول المقررة المهيأة التى تطلبها وترى نجاحها فيها والمستبد فى تلك الحال لا يسعه الا الاجابة طوعا أو كرها وهكذا يتم السير الطبيعى ولا مبدل لسنته فليتبصر العقلاء وليتق الله المغرورون ولا ييأس من رحمة الله عاقل غير خامل ·

وانى أختم هـذا البحث بأن الله جلت حكمته قد جعـل الأمم مسؤولة عن أعمال من حكمته عليها وهذا حق فاذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كمـا تفعـل الشرائع باقامة القيم على القاصر أو السفيه وهذه حكمة ومتى بلغت أمـة رشدها استرجعت عزها وهذا عـدل وهكذا « ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » ·



الفهـرس

الموضـوع	صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٤ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3335 — 3

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل اصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو امنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن اى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب اشد ضراوة ، لأن احد اطرافها هم ابناء لنا ، أعماهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم ابناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو ماساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بيد المصريين هذه السلسلة للوقوف امام هذه الظاهرة بالفكر المستن الحق الشريفة .



الغلاف للفنان : محمود الهندى

بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشاً